الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

أبي كما عرفته

لمحات من سيرة الشيخ الإمام
عبدالله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله

هيا بنت عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين

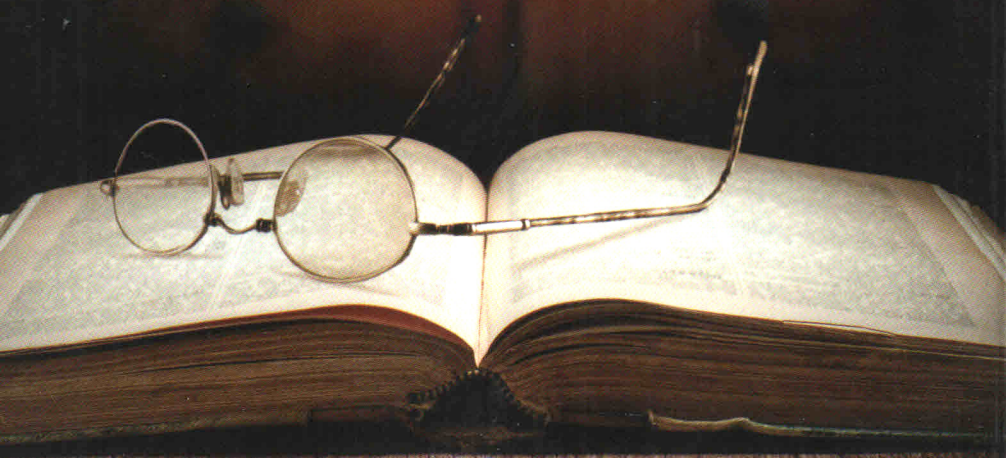

مدار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

© هيا عبدالله عبدالرحمن الجبرين، ١٤٣٨ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجبرين، هيا عبدالله عبدالرحمن
أبي كما عرفته./ هيا بنت عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين ـ ط٢. ـ الرياض، ١٤٣٨هـ
١٤٤؛ ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٥ ـ ٤٨٥٧ ـ ٠٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ ابن جبرين، عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله/ ١٣٤٩ ـ ١٤٣٠ هـ
أ ـ العنوان
ديوي: ٩٢٢،٥٨٤ ١٤٣٨/٩١٠٥

محفوظة جميع الحقوق

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٩١٠٥
ردمك: ٥ ـ ٤٨٥٧ ـ ٠٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م

مدار الوطن للنشر

المقر الجديد
المملكة العربية السعودية
الرياض ـ الروضة ـ مخرج ١١
شارع أبي سعيد الخدري متفرع
من شارع خالد بن الوليد
هاتف: ٠١١٢٣١٣٠١٨ (٣ خطوط)
٠١١٤٧٩٢٠٤٢
فاكس: ٠١١٢٣٢٢٠٩٦

فرع الملز ـ مخرج ١٥ ـ مقابل جامع الراجحي
هاتف: ٠١١٤٤٥٤١٢٤ ـ جوال: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
مندوب الرياض: ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦
مندوب الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
مندوب الجنوبية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩
مندوب الشرقية والدمام: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨
مندوب الشمالية والقصيم: ٠٥٠٤١٢٠٧٢٨
مسؤول التوزيع الخيري: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩
لطلبات الجهات الحكومية: ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

www.madaralwatan.com.sa • pop@madaralwatan.com.sa • madaralwatan@hotmail.com

الفهرس

تمهيد ٥
الشيخ في بيته ٩
جمع الشيخ بين الحزم والرحمة ١٣
كيف علّم بناته ١٥
زوجة الشيخ دورها وصبرها ١٧
كرم الشيخ وجوده ٢٢
جدوله اليومي ٢٥
معالم في طريق الدعوة من حياة الشيخ ٢٩
حبه للعلم ٣٣
متميز في التواريخ ٣٧
صور من تواضع الشيخ مع شدة اجتهاده ٣٩
حرص الشيخ على درس الفجر ٤٤
إكرام الشيخ لطلابه ومحبيه ٤٥
من أعجب المواقف العلمية للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٤٧

افتقاده لكتبه وحرصه عليها ٤٩
وُدّ الشيخ بمشايخه وطلابه ٥٣

عباداته ٥٥
حرص الشيخ على إخفاء أعماله الصالحة ٥٧
حب الشيخ للصدقة وبذلها لمستحقيها ٥٩

زهده وورعه ٦٢
إكرام الشيخ للعمال والخدم ٦٥
كراهية الشيخ للإسراف ٦٦

أخلاقه ٦٩
صلة الرحم ٦٩
خدمة الناس ٧٢
التواضع ٧٥
الصمت ٨١
الغضب لدين الله ٨٢
الأريحية ٨٤

أسفاره ٨٦
في المستشفى ٩٠
وفاته ١١٤
بعد الرحيل ١٢٤
الخاتمة ١٣١
ملحق الصور ١٣٣

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذي حكم فقضى، وقسم وأعطى، وخفض وأعلى، وله الحمد في الآخرة والأولى.

أما بعد:

فما زالت سِيَرُ الرجال العظماء الصالحين ترسم معالم الطريق لمن جاء بعدهم، فهم يقدّمون أنموذجًا يُحتَذى، ومثَلًا يُتأسى به، ولهذا جاء هذا الكتاب ليحكي شيئًا من السيرة الخاصة لسماحة الوالد الشيخ الفقيه عبد الله بن عبد الرحمٰن الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهو يتناول بعض الوقائع التي عاصرتها في بيت والدي بعضها كان محفورًا في الذاكرة لا يُمحَى، وبعضها قيّدتُه متفرقًا حين ذكّرتني إياه المواقف المشابهة، أو الأحاديث الجانبية مع الإخوة والأخوات والأقارب، فالشكر موصول لكل من ساهم في تذكيري ببعض تلك المواقف.

ومن الطبيعي أن تكون صلتي بوالدي الشيخ عبد الله بن جبرين رَحِمَهُ اللَّهُ مختلفة عن صلة طلابه به، ولهذا فربما تطرقتُ لجوانب لم يسطّرها طلابه الذين تتلمذوا على يديه؛ إذ إنني أكتب من زاوية أخرى قد لا يستطيع معرفة خفاياها إلا من عاش مع الشيخ العالم الجليل عليه رحمة الله.

وكانت فكرة الكتاب قد بدأت إبّان حياة الوالد، حين كانت بعض الأخوات المحبات يسألنني عن الشيخ وكيف يقضي يومه؟ وفيم يتكلم في المنزل؟ وهل كان يلقي على أهل بيته دروسًا؟

وكُنّ يطالبنني بتسطير كل شيء من مواقفه؛ لينتفع بها غير أهل بيته.

وحين كنت أذكر لهن طرفًا يسيرًا من مواقفه، كن ينبهرن ويتعجبن منها، مع أنها مواقف لم أكن أتعجب منها بسبب الْتصاقي بوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ وعدم استغرابي من مواقفه الرائعة، والتي كنت أظنها تحدث من كل أبٍ.

ومن هنا أحببت أن أكتب هذه المواقف؛ لأذكر جوانب خفيةً من حياة ذلك العالم الجليل، وقد يجد القارئ فيها عدم ترتيب زمني؛ لأنها خواطر وذكريات متناثرة لممتها ونظمتها عقدًا لعل الله يحيي بها الهمم.

سـائلة المولى القدير أن يكتب لـي ولوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ ولمن سـاهم في إعداد هذه الورقات الأجر والمثوبة؛ فما رأيتَ فيها ـ أخي القارئ ـ من صواب فهو من الله وحده، وما كان من خطأ وزلل فمن نفسي والشيطان[1].

وكتبه

هيا بنت عبدالله الجبرين

الرياض

(١) كتبت مسودة هذه المقدمة في رمضان ١٤٣٠هـ.

الشيخ في بيته

قبل عدة سنين... كنتُ طفلةً درجتُ في بيت عز ودين، بين والدين حنونَين، ولَمَّا أفطن بعدُ للحياة... فكنت أنظر لأبي وأحدّث نفسي: إنه كغيره من الرجال، ليته يصبح ذا شأن.

ولم أكن أعلم بأنه ذو شأن كبير فعلًا، كان همّي الشهرة فقط، وأن أكون ابنة ذلك الشخص العظيم الذي يُشار إليه بالبنان.

وسبحان مقدّر الأمور، ومصرّف الأحوال، فقد دارت الدنيا وأصبح لا يكاد يوجد بيتٌ من بيوت المسلمين إلا ويعرف أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نشأ الشيخ الوالد عبدالله بن جبرين في بلدة صغيرة اسمها الرين، وطلب مبادئ العلم على والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشجعه والده على حفظ القرآن، واستمر يحفظه، وكان غالب جلوسه في المسجد من بعد صلاة الفجر ولا يخرج إلا بعد صلاة الظهر ويرجع للبيت؛ فإن وجد غداء جاهزًا أكل منه، وإلا عاد للمسجد ولم يخرج إلا بعد صلاة المغرب حتى حفظ القرآن عن ظهر قلب وعمره حوالي ١٧ عامًا.

ثم بدأ يطلب العلم على الشيخ أبو حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان يقرأ عليه بعد طلوع الشمس حتى أذان الظهر، وبعد الظهر حوالي ساعة، وبعد العصر ساعة وبعد المغرب حتى أذان العشاء وكان أترابه وأصحابه يقومون برحلات برية، ولهم ألعاب في الليل والنهار، وهو مكب على دروسه لا يشاركهم، ولديهم بنادق ويذهبون للصيد لكنه لا يفكر في أن يشاركهم؛ بل هو كما قال الأول:

خير أوقاتي سرورًا ... ما تقضاه الكتاب
هو كالروضة فيها ... كل ما رق وطاب
من ثمار دانيات ... وأزاهير عجاب[1]

كانت أمي رحمها الله تحكي لنا: أن عمّها (جدي لأبي) رحمهم الله جميعًا كان يخيّرها: أيّ أبنائي تريدين؟ لأنها كانت يتيمة عنده؛ فكانت تريد أحد أعمامي الذي يخرج دائمًا يصطاد ويعود بالصيد، فترى فيه القوة التي تحميها لكن عمّها يشير عليها بعبد الله، وكانت لا ترغب فيه؛ حيث إنه عاكف طوال وقته على كتابه بشكل مملّ لا ترغبه أية فتاة، لكنها تزوجته حياءً من عمها، ولما كبرتْ فهمتْ أن مشورة عمها كانت صائبةً؛ فكانت تدعو له باستمرار.

---

(١) من مرويات عمي محمد حفظه الله.

وأذكر من قصصها: أن أتراب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كانوا يأتونه يطلبون منه القيام للعب معهم، إلا أنه كان مشغولًا بالتلقي... فلما يئسوا منه صاروا يعيّرونه ويصفونه بالخوف منهم، وهو لا يبالي بهم.

ودارت الأيام وأصبح كثيرون ممن سخروا منه يطلبون قُربه ورضاه!!

في بيتنا كان أبي رَحِمَهُ اللَّهُ مشغولًا جدًا بالتعلُّم والتعليم، ولم يكن مسؤولًا مباشرًا عني أو عن غيري من إخوتي؛ فقد كانت أمي رحمها الله تقوم ببعض واجباته نحونا؛ حيث إن وقته لا يسعفه بذلك، وقد وهبها الله شخصية قوية مناسبة لتولي ذلك الدور؛ فأتذكر كم كان إخوتي في شبابهم يُخْفُون عنها بعض أسرارهم، ومع من يخرجون وأسفارهم... ثم هي تكتشفها بذكائها، وتنصحهم وتلومهم إن قصَّرُوا... وتشجّع المحسن الناجح.

ولا ينفي ذلك دور والدي في تربية إخوتي وصقل شخصياتهم.

ومن المواقف التي أذكرها عندما كنت صغيرة أنني كنت جريئة؛ أخاطب والدي بما يجول في خاطري، ولم أكن أُخفي عنه شيئًا خلافًا لأخواتي اللاتي يكبرنني، فأذكر أنني قلت له يومًا: لِمَ يا والدي لم تسمّني باسم صحابية كما أسميت أختيّ اللتين فوقي... أريد أن تسميني (سكينة) فقال: سمّي نفسك الآن.

فقلت: كلا، فقد فات الأوان.

وأتذكر أنه قليـــلًا ما كان يؤنّبنـــا، ولم يكن يمـــدّ يده نحونا بالضرب أبدًا، حتى ظننت أنه لا يعرف العقاب ولا يســـتخدمه، وبما أني كنت الطفلة الصغرى المدللة فقد سوّغ لي ذلك معصية أوامره، فقد كنت مرة عنده في مكتبتـــه، وأمرني بالخروج؛ لأنه ســـيخرج لموعد غداء فرفضتُ؛ أريده أن يذهب ويدع مكتبته لي متى ما مللت منها أخرج؛ فلم يناقشـــني طويلًا؛ بل خرج وأغلق الباب بالمفتاح وذهب لموعده، وتركني في المكتبة وحدي، وقد أذهلتنـــي المفاجأة، ولـــولا فضل الله، ثم اســـتخدام صوتي لنداء إخوتي لبقيت حتى يرجع من مواعيده، وربما كان ذلك مساءً؛ فقد جاء أخي سليمان وأخرجني بســـلّم صعد عليه، ودخل من فتحة تُركت لتركيب جهاز التكييف.

وفي إحدى المرات دخلت مكتبته مرة أخرى وهو جالس بها، وأفســـدت صندوقًا للمناديل فيها، فقام إلـــيَّ مغضبًا، وجرّني من ضفيرتي، وأغلق دوني الباب... فوقفتُ غير مصدّقة أن من فعل بي ذلك هو أبي!!

❀ ❀ ❀

جمع الشيخ بين الحزم والرحمة:

رحم الله أبي الذي لم أسمع منه في حياتي كلمة نابية، فقد كان عنوانًا للعطف والهدوء، ولكنه كان صارمًا في تربيته؛ عندما يشعر أن طفله يتدلل أكثر مما تستحق سنُّه.

وتخبرني أختي الكبرى بأنه كان ينهاها عن الخروج للشارع في صباها؛ لكنها كانت تخرج، وتلعب مع صويحباتها، فكان يأتي خلفها ويمشي بهدوء حتى يقترب منها، ويجرها من ضفيرتها، ويقف باسمًا وإذا التفتت غاضبة رأت والدها، فينقلب غضبها رعبًا، ولم يكن يوبّخها أمام صديقاتها.

لم يكن أبدًا يعرف التدليل ولا يحبّه، وقد كان ينكر على مَن يراها من نسائنا تُطعم أبناءها بيدها، وقد تجاوزوا هذه المرحلة، فيقول مثلًا عاميًا دارجًا: (غدا هرش وأنا أقوده) بمعنى أنه أصبح جملًا هرمًا ولا زلت أقوده.

وبعضهن قد تحاول إرغام طفلها على الأكل، أو قد تشتكي من عدم أكله، فيقول لها مثلًا دارجًا آخر: (الظميان يكسر الحوض).

وأذكر أنه سُئل عن الطفل الذي يقف في قِبلة أمه أثناء الصلاة، هل يفسد صلاتها؟

قال: تمنعه.

فقيل له: سيبكي.

قال: تضربه ولو بكى... حيث إن الصلاة لا لعب فيها.

ولا يمكنني نسيان الكلمات التي كان يرددها عليَّ كلما ذهبت أمي رحمها الله لمشوارٍ ولم تأخذني معها: المسكينة راحوا وتركوها، المسكينة ما راحت معهم!!

ويلحنها بلحن جميل، كأنه يقرأ من كتاب بقراءة السلف.

أما إذا رأى طفلًا يبكي فإنه يسارع إليه ويقول: (بكى بكى ولا ألومه، عضّ القعيد خرطومه) حتى يضحك ذلك الباكي... وينقلب حزنه سعادةً؛ لمشاركة جدّه له في إسعاده.

كنا ـ نحن أبناءه ـ في مراحل عمرية مختلفة، وكان أحيانًا يأتي لسؤالنا عما نحفظ من كتاب الله، ثم يأتي بآية ويقول: في أي سورة هي؟ وإن لم نعرف سأل عن غيرها، وكان هذا هو اختباره لحفظنا، وكان غالبًا ما يسألنا وهو واقف أو عابر، ولا يجلس؛ لكثرة انشغاله.

❀ ❀ ❀

كيف علّم بناته:

لم يكن في البداية يريد لبناته أن يخرجن من بيته للتعلم بالمدارس؛ حيث كان هناك تحفُّظ من غالب الناس على هذا الأمر المستحدَث، ولكن لحبّه للعلم عَهِدَ بالثلاث الكبيرات لامرأة تُحَفِّظهن القرآن، وإحداهن الآن ختمت القرآن بعد إصرار واجتهاد، والأخرى مثقفة ثقافة عالية لا تختلف عن خريجة الجامعة، إن لم تكن هي أفضل، مع أن قدميها لم تطأ مدرسة نظامية إلا لكونها أمًّا لطالبة، أما الثالثة فهي قائدتنا ورئيستنا واستشاريتنا في كل أمر، بارك الله فيهن جميعًا، وجمعنا بهن وبوالدينا في جنات النعيم.

وأما الثلاث الصغيرات فقد بدأتْ في عصرهن تخفّ حدة الخوف من المدارس النظامية، وعلم الوالد بوجود مدرسة لتحفيظ القرآن فألحقهن بها، وكانت تحوي القرآن وغيره من علوم كأيّ مدرسة أخرى، غير أن تركيزهم أشد على القرآن الكريم، وهكذا درسنا في المدرسة الأولى لتحفيظ القرآن الكريم، وقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن للبنات الآن حتى تعدت ثمان وعشرين مدرسة في الرياض وحدها.

في الدراسة لم يكن يتابعنا بشكل دقيق، فهو مشغول بعلمه وتعليمه، لكنه يحرص على تفوقنا، ويفرح به كما يسوؤه تأخرنا الدراسي، إلا أني أتذكر كم كان مهتمًا بأخي سليمان، وكان يسأل

عنه، وأذكـــر ذلك تمامًا حيـــن كان في الجامعـــة، وصعبت عليه الدراسة بكلية الشـــريعة... فكان إذا خرجت النتيجة يسأله بقوله: بشّر وإلا كشّر؟! من البشرى للتفاؤل والسعادة بالنجاح والخير، أو من التكشير وهي تعابير الوجه التي توحي بالسوء.

كانت إحدى أخواتي متفوقة، ولـــم تكن ترضى بغير الأولى لترتيبها في الصف، فلما انتصفـــت المرحلة الثانوية تزوجت ولم تكمل تعليمها حياءً من زميلاتها، مع أنهم اشترطوا على زوجها أن تُتِمّ دراســـتها، وقد حزن والدي لذلك كثيرًا، ولامها، وألحَّ عليها لتدرس لكنها لم تفعل... وصار يكثر أن يقول: لو أكملت دراستها لكانت أجود البنات، وأحيانًا كان إذا رآها قال: لو أكملت تعليمك لكنت الآن معك شـــهادة كذا... ومكث طويـــلًا وهو يتذكر ذلك ولا ينساه! كل ذلك حبًا في العلم، وتشجيعًا لأهله.

في أحد الأيام جاءته إحدى حفيداته بشهادتها، وكانت تحمل درجات متميزة، وقد كُتب عليها (الأولـــى)، ففرح كثيرًا وضمّها على صدره بقوة، ثم صار يسألها عن نتيجتها باستمرار، ولم أكن أظن أنه سيهتم ويفرح لهذا الحد؛ وإلا كنتُ نافستها!

❀ ❀ ❀

زوجة الشيخ دورها وصبرها:

مرت عليه فترة طويلة كانت أمي رحمها الله أو أخواتي يصنعن له الطعام ويذهب ليأكل مع مرافقه الهندي الجنسية، ويدعنا نحن النساء نأكل وحدنا، ولم تكن أمي تتذمر حتى ظننت أن هذا الوضع طبيعي، ولم أعرف غرابته حتى كبرت وتزوجت، وقارنت نفسي بها رحمها الله.

وكانت فعلًا صابرةً على انشغاله عنها، ولم تكن تتذمر؛ بل كانت تحمده في كل مجلس، وتدعو لعمها (عبد الرحمٰن والد الشيخ) الذي أشار عليها بالزواج منه.

لم تكن عنيدة أو مكابرة مثل بعض العجائز؛ فبعضهن لا تنادي زوجها باسمه؛ كيدًا منهن، وربما حياءً.

لكنها كانت تناديه باسمه المجرد: عبد الله... كأية زوجة عاقلة.

كانت خجولة حيية تقدر الناس قدرهم، وتخدم والد زوجها ووالدته حتى توفيا رحمهم الله جميعًا.

وأنا لا أذكر والدَيْ أبي رحمهما الله فقد ماتا قبل ولادتي.

كانت والدتي رحمها الله صابرةً على أحوال الدنيا وتغيراتها، فيومٌ سعةٌ ويومٌ ضيقٌ، وقد كان عمي محمد حفظه الله لا ينسى كم

تقدّم أمي لخدمة زوجها وأهله وضيوفه وأمّه، حتى إنه يقول: إنها لتخدم خدمة خمسة عمال في البيت لكثرة الضيوف إضافة لاهتمامها بأطفالها، وإعداد الطعام... إلخ.

كانت رحمها الله أُميّة لا تُجيد القراءة ولا الكتابة، إلا أنها لما كبر أطفالها قررت أن تتعلم لتقرأ القرآن الكريم... ووجدت من والدي رَحِمَهُ اللَّهُ كل التشجيع.

فدرست في مدارس محو الأمية، ولم تكن تأبه بالشهادة ولا غيرها؛ فالمهم عندها أن تتعلم القراءة والقرآن.

حتى كان لها ما أرادت فصارت تقرأ القرآن الكريم بدايةً مع جهاز التسجيل وفي قصار السور... ثم صارت تختمه كاملًا قراءةً، وقد فرحت لذلك، ولم تكن تظن أنها تقدر على ذلك.

ثم صارت تلتحق بدور التحفيظ، وتحفظ وتقرأ.

وأتذكر أنها كانت تحرص على قراءة سورة الكهف في كل يوم جمعة، وفي إحدى الجُمَع تأخرتُ في قراءتها ولم تبدأ إلا قبل أذان المغرب، فكانت تحاول أن تسرع لتسابق الوقت، وكنتُ ذلك العهد في المرحلة الابتدائية أستذكر دروسي... فلما رأيتها على هذه الحال أتيت بجانبها، وصرت أقرأ معها لتسرع أكثر حتى أتمت السورة، وشكرتني على مبادرتي.

لم تكن تشكو أو تتضايق من أحوال الدنيا، بل كانت صابرةً محتسبةً، تحب الخير، وتسارع لكل درس أو محاضرة، وكنا نحن بناتها قبل زواجنا نأتي معها لهذه الدروس، وقد تأثرنا وزاد التزامنا بفضل الله تعالى، فله الحمد والمنة.

كانت تمرَض وتصبر وتتجلد، ولم يكن في بيتنا خادمة، مع كثرة الضيوف والوافدين علينا إلا أنني أتذكر أن رُكَبَها أتعبتها بعد أن صرتُ أُميّز، ولا زالت تُعَالَج من ألم المفاصل حتى أُصيبت بداء أشد في كبدها وهو السرطان، عافنا الله وإياكم، وجعل ما أصابها كفارةً لذنوبها ورفعةً لدرجاتها.

ولا يمكنني أن أنسى توجّعها منه، وأتذكر أنني كنت أتجهز للذهاب للمدرسة وهي تعد إفطار والدي رحمهم الله جميعًا ثم تذهب لترتاح على سريرها قليلًا، وتغمض عينيها من شدة الألم وتستلقي... ثم تتحامل على نفسها وتذهب لتكمل صنع الطعام.

وأتذكر أنني كنت أقول لها: أنا أيضًا يؤلمني بطني إذا استيقظت من النوم أحيانًا، ولكن شتان بين ألمي وألمها.

ثم أرقيها ببعض الآيات قبل أن أودعها وأذهب للمدرسة.

كانت تشكو لربها، ولأن شكايتها قليلة وصبرها عظيم؛ لم نظن أن بها هذا المرض المؤلم الخطير.

وفي أحد الأيام عدنا من المدرسة، ووجدنا البيت خاليًا من الغالية رحمها الله فقد ذهبت للمستشفى، واكتشفوا وجود هذا الداء فيها، واستمرت تدخل وتخرج من المستشفى حتى وافاها الأجل في يوم الاثنين ١٤١٤/٧/٢١هـ.

أتذكر فجيعة والدي بموت والدتي رحمهما الله فقد كان يذهب للمستشفى يرقيها، ويقرأ عليها، حتى جاءنا خبر موتها، ووالله لن أنسى تلك الدمعتين وفاءً لزوجته وابنة عمه التي رافقته قرابة أربعين عامًا.

بعد وفاتها اختلفت الأوضاع وتغيرت الحال.

مرت السنوات، وتبدلت الأحوال؛ تزوج أبناؤه وبناته، تزوج الوالد غيرها بعد إلحاح الناصحين، ولم يكن يرغب بالزواج؛ بل كان يقول لمن يقول له: لِمَ لا تتزوج؟: أريد من الحور العين ـ إن شاء الله ـ، وقد كان بعضهم يقول: لِمَ لا تعدد؟

فكان يقول: النساء من زينة الدنيا، وأنا مشغول عن الدنيا.

ومع كل ذلك لا يزال الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ مُكِبًّا على العلم لَمْ يملَّ مِن مطالعة كتاب.

كانت زوجته تشعر بالفراغ في بداية زواجها منه... وبالحزن أيضًا، فلم يحدث لها ما يحصل للزوجات حديثات العهد بالزواج من تفرُّغ الزوج لعروسه، وسفره بها واستجمامهما معًا.

لكن أحد إخوتي كلّمها في الأمر، وقال: لقد كان الشيخ هكذا مشغولًا في كتبه ودروسه حتى مع والدتنا رحمها الله فلا تظنّي أنه زاهدٌ بك؛ بل هذه طبيعة فيه، فتفهمت الوضع ـ جزاها الله خيرًا ـ، وكانت له عونًا في منهجه لخدمة العلم والعلماء.

❀ ❀ ❀

كرم الشيخ وجوده:

لم يكن يبخل على أبنائه بشيء؛ فمن احتاج منهم بيتًا بنى له، ومن احتاج سيارة أعطاه، كما كانت عادته مع إخوانه، فلم يكن يبخل، وكان لهم كالوالد الحنون بما أنه أكبرهم سنًّا وقدرًا.

كان غالبًا ما يدعو إخوته وأبناءه وأولادهم لبيته في كل مناسبة، فعند عودته من السفر يدعوهم على وليمة ببيته؛ لأنهم سيحضرون للسلام عليه، فيقوم لهم بواجب الضيافة، وكلما جاءه ضيف ذبح له ذبيحة أو أكثر ودعا إليها إخوته وأبناء عمومته، وكان لا ينساهم أبدًا، ويحب أخواته ويقدّرهن، وكانت إحداهن تكبره فكان يُكِنّ لها الحب والاحترام، ويقوم لها إذا دخلت، وكان يفرح بمبيتها عنده، وكان يُرَى البِشْر على وجهه إذا رأى أخواته أو أصهاره أو أقاربه، ويبالغ في إكرامهم.

أما إذا لم يكن في بيته إلا أهله فإنه يلومهم لو رأى إسرافًا وأنواعًا من الطعام.

كان يهفو للقياه كل الأقارب حتى الصغار منهم وكان لطيفًا جدًّا معهم يمازحهم، ويسلّم عليهم، ويحرص على حفظ أسماء أحفاده وأولادهم... وإذا سلّمت عليه مجموعة من النساء يقوم بذكر كنية كل واحدة منا: بناته وبناتهن، وبنات أبنائه، وبنات إخوانه وكأنه يريد تحفيز ذاكرته.

وكانت له جلسة خاصَّة معنا نحن النساء أهل بيته بعد عودته من وليمة عشاء يكون مدعوًا لها، أو سفر قريب كان فيه... ويجلس بيننا قرابة نصف ساعة، نسأله فيها عن حاله، وتتخللها الفتاوى، ولا بد من وجود فوائد من كل جلسة نجلسها مع هذا العالِم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد كان حريصًا على رؤيتنا حتى إنه يذهب للمجلس الذي نجتمع فيه كل أسبوع، ويصعد السُّلَّم وهو كبير السن ليسلّم علينا، وأحيانًا لا نأتي فيسأل عنا: لِمَ لَمْ تأتِ البنات اليوم وهو يوم إجازة؟!

وكان يفتقدنا إذا غبنا، ولن أنسى عناقه الطويل لإحدى أخواتي لما تزوجتْ وابتعدتْ وتأخرتْ ذات مرة عن زيارته شهورًا.

وكذلك لا أنسى موقفًا في صبانا يبيّن صراحته؛ فقد كان يدلل حفيداته، حتى ظننا ونحن بناته أنه قد نسينا، وكنا في نفس السن، فتجرأت إحدى حفيداته وسألته: هل تحبنا أكثر أم تحب ابنتك هذه... وأشارت إليَّ! فقال: بل هي أكثر... رحمه الله رحمة واسعة، وسقى قبره هاطل الرحمات.

وقد سُئل رَحِمَهُ اللَّهُ:

ماذا يتبقى من وقتكم لأسرتكم؟!

فقال: يبقى ما فيه خير، يبقى الليل والوقت الذي لا نكون فيه مطالبين بمطالعة كتاب أو جواب سؤال، فنبقى فيه مع الأولاد، بالإضافة إلى وقت تناول الطعام، وهذا فيه الكفاية، إن شاء الله.

❀ ❀ ❀

جدوله اليومي

كان أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُمضي يومه كله في طاعة، نحسبه والله حسيبه، فعند استيقاظه يقوم كالفزع ويهب للصلاة، ولو لم يكن متأخرًا.

وقد سأله عبد الرحمٰن أخي: لِمَ تستيقظ بهذه الطريقة؟

فقال: الاستيقاظ بفزع يطرد بقايا النوم، وقد جرّبه عبد الرحمٰن فوجد كلام الوالد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيحًا.

وإذا انتهى من صلاة الفجر بدأ درسه اليومي بعدها، ثم يعود لبيته الضحى؛ فيذهب للمكتب يقضي بعض الأعمال، أو يقرأ أحد الكتب ويصححها ويراجعها، حتى يحين إفطاره، ثم يقيل أقل من ساعة حتى يقترب وقت الصلاة، وإن كانت هناك جنازة سيصلي عليها أو موعد ما، فإنه يذهب قبله بفترة كافية.

وقد كان لا يتردد أبدًا إن دعي للصلاة على جنازة ما دام ذلك لا يتعارض مع أعماله، وقد كان يشارك في الدفن ولو بملء كفه ترابًا.

وبعد الظهر يذهب للمكتب ليقضي حاجات الناس من كتابة شفاعات، واستقبال للفتاوى بالهاتف، ومراجعة كتب طلاب العلم، والتوقيع على بعض الأوراق.

وبعدها يعود لبيته الملاصق لمكتبه ليأكل لقيمات الغداء، وكان يفضل الطعام الشعبي المصنوع من الدقيق الأسمر كالمرقوق والقرصان أو الجريش؛ حيث إن هذه الأصناف لينة وسهلة البلع.

أما إن كان مدعوًا على وليمة فإنه يأكل مما يُوضَع له، ولا يكلّف أهل البيت شيئًا، أو يأمر بوجبة معينة.

وقد نلاحظ عليه أحيانًا معاناة في بلع الطعام، فقد تدمع عيناه، ولكنه لا يشكو ولا يطلب الماء كحالنا عندما يغصّ أحدنا بلقمة!!

مع أنه في الولائم يصعب عليه تناول الأرز لقسوته، لكنه يتصبر ويغنيه ذلك الطعام عن الوجبة.

ثم يصلي العصر، وبعدها يلقي درسًا قصيرًا في مسجده، ثم يفتح باب بيته لاستقبال الناس على اختلاف طبقاتهم؛ فالفقير يأتي لطلب العون، والمتزوج يأتي لكتابة عقد زواجه، والقريب يأتي للسلام، وطالب الشفاعة يأتي بأوراقه، وغيرهم كثير.

وكان بعض الأكابر من الأقارب وغيرهم يجدون في أنفسهم أن الشيخ لم يميّزهم عن غيرهم، ولكنه في هذا الوقت الذي

خصصه للناس يبدأ بمن جاء أولًا، وأحيانًا لكثرة الناس لا يفطن لوجود هؤلاء الأقارب أصلًا.

أما من ناحية عدم تقديمه لأقاربه، فأتذكر أنني أعطيته ذات مرة كتابًا ألّفه أحد طلبة العلم من أقارب زوجي ليقرأه، ويكتب له مقدمة قبل طباعته، فوضعه عنده ولما أتيت أسأل عنه، قال إنه لا يتذكره!! وأشار إلى مجموعة أوراق، وقال: ابحثي هنا... فلما وجدته وأقبلت به إليه، قال: كلا، لن أكتب له الآن حتى يأتي دوره.

فأدركت من هذا الموقف أنه لم يكن يهتم بمن يطلب المصلحة ويقدمه؛ لكونه من أقاربه؛ بل يعدل بين الجميع.

لكن بعد وفاته دخلت بيته، ووجدت كتابي في نفس الرفّ الذي رفعه عليه، وقلت لنفسي: سبحان الله! لم يأت دوره! لكني وجدت فيه ورقة خارجية وُضعت بين صفحاته، ولما فتحتها وجدته قد بدأ فيه، وقرأ منه بضع صفحات، وعلق عليها، فبكيت لأن المنية حالت بينه وبين تمامها، والحمد لله على كل حال.

وكان بعد المغرب لديه درس يلقيه في أحد الجوامع الكبار، وقد يكون بعيدًا جدًا عن بيته، ولكنه لا يتذمر ويذهب للجامع ليبذل ما بوسعه لخدمة دينه ما استطاع.

وبعد العشاء إما أن يكون مدعوًا على وليمة فيلبّي الدعوة، أو يذهب لبيته ليُمضي باقي ليلته مطأطئًا رأسه على كتاب حتى تشير الساعة إلى الثانية عشرة. ولم يكن يحب النوم قبلها أبدًا لا صيفًا ولا شتاءً؛ بل وضع هذا الموعد له ليتقيد به ولا يضيع وقته في النوم، وليقلل من ساعات نومه، وكان أحيانًا يُرهِق نفسه بالأعمال ويغشاه النعاس قبل الثانية عشرة، فيقاوم ويفتح عينيه ليكمل قراءته وكتابته حتى لا يدع للكسل مجالًا... ثم يذهب لفراشه أخيرًا بعد يوم مليء بخدمة الناس والأمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أسأل الله أن يجعل ما قدّمه في ميزان حسناته، وأن يلحقنا به في عليين.

❀ ❀ ❀

معالم في طريق الدعوة من حياة الشيخ:

قد يضغط جدوله هذا بشكل أكبر ليزيد في بذل نفسه إذا كان في سفر أو نحوه... يقول تلميذه أحمد المهنا عن إحدى رحلاته معه[1]: (كنا في رحلة بعد صلاة الظهر من يوم الأربعاء، وكنت أقود السيارة مع الشيخ متجهين إلى إحدى المحافظات تبعد عن الرياض ثلاثمائة كيلو، خرجت من الدوام والشيخ عنده درس بعد الفجر والضحى يقرأ في بعض الكتب، جئته بعد الظهر فإذا بالشيخ في الشارع ينتظرني.

فمشينا إلى هذه البلدة، وجلسنا ثلاثة أيام، ما نمنا فيها إلا ست ساعات.

كنت أحس أن رأسي سينفجر من قلة النوم، والشيخ بكل أريحية أقول له: ألا تنام؟! فيقول: نحن مرتاحون جالسين على الكرسي ليس عندنا تعب، التعب عند الأولين الذين يسافرون على الإبل، ويروون الماء ويتيهون في الطريق.

وصلنا البلد فاستقبلنا الإخوة، وكان من عادة الشيخ إذا ذهب إلى إحدى المحافظات أو البلدان أن يحمل من الكتب التي لديه سواءً من مؤلفاته أو مؤلفات غيره، يحملها في كراتين، ويزود بها مكاتب الدعوة وتوعية الجاليات، وهذه قليل من يصنعها.

---

(١) برنامج مرآة الحدث في قناة المجد.

كان عنده لقاء بعد العصر، ثم حفل بعد المغرب، ثم لقاء بعد صلاة العشاء، ولم نصلِ البيت الذي نريد أن نستقر فيه إلا الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل.

وكان عنده في الغد درس بعد صلاة الفجر، فكان من المناسب أن نخصص مكانًا مستقلًا للشيخ لينام فيه، فلما دخل نظرت من الباب فوجدت الشيخ ذهب يتوضأ فما حاولتُ أن أُشْعِرَه وسكت.

في الغد انطلقنا إلى عدة أماكن في هذه المحافظة: عزاء، زيارة مريض، زيارة مكتب دعوة الجاليات، زيارة محافظ البلد، وأنا أقول: سبحان الله! بركة الوقت مع هذا العالِم عجيبةٌ.

قال الشيخ بعد صلاة العصر: عندنا كلمة تبعد سبعين كيلو عن المحافظة... كانت هذه الكلمة عن فضل صلاة العصر، جلس فيها الشيخ خمسًا وأربعين دقيقة يتكلم عن فضل صلاة العصر، يتحدث ويسوق أقوال العلماء في الخلاف في الصلاة الوسطى.

كان عنده بعد العشاء محاضرة، ولم تنتهِ إلا في الساعة الحادية عشرة ليلًا.

ذهبنا بعدها إلى محافظة أخرى تبعد مائة وخمسين كيلو... قلت للشيخ: لعل فيك نومًا؟ وكنت أرغب أن الشيخ يوافقني في أن نأخذ بيتًا وننام فيه، قال: (لا.... إذا أنت تعبان أنا أسوق!!).

وصلنا الساعة الحادية عشـــرة والربع ليلًا، كان البلد صغيرًا وطلاب العلم يُعَدُّون على الأصابع، فجلســـنا فـــي البيت، وقال الشيخ: خلاص أنتم الآن ناموا، وأنا سأنام.

كنا في وسط الصيف، وأذان الفجر في الرابعة إلا خمس دقائق تقريبًا، قبل أن أنـــام أردت الاطمئنان على الشـــيخ فتحت الباب وجدته يصلي.

أخذت عشـــر دقائق ورجعت فوجدته يصلي، أنا رأسي يكاد ينفجر من التعب والإرهاق.

اضطجعت على الفراش، وكان متواضعًا جدًّا، عبارة عن مسند نمت عليه، وكان فراش الشيخ مثل فراشي.

وقبـــل الأذان بنصـــف ســـاعة، وإذا بالشـــيخ يوقظنـــي: أبا عبد الرحمٰن، توكل على الله!!

فجلس الشـــيخ بعد صلاة الفجر في الدرس حتى الساعة السابعة والربع.

قلت للشـــيخ: هل تريد أن ننام قليلًا؟، قال: لا... الإخوان عندهم سؤال على الهاتف.

أنا أعرف أن البلد صغير، لم يأته إلا ستة أسئلة أو سبعة أسئلة، والشيخ ينتظر عند الهاتف.

قال لي الشيخ: قم اغتسل لصلاة الجمعة، فلما قربت الصلاة، قال الشيخ: خذوا أحمد لأحد الجوامع في إحدى القرى، وامتثالًا لأمر الشيخ ذهبت وخطبت).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ متواضعًا في ملبسه لا يحب التزين المبالَغ فيه، فكان يغيّر ملابسه عندما يغتسل؛ سواء في يوم الجمعة؛ اتباعًا لسُنَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أو في غيرها من أيام الأسبوع مرتين أو ثلاثة، وكان يذهب أحيانًا لبعض الوجهاء وقد بدأت بعض ملابسه تتسخ، لكنه لم يكن يبالي... فيدخل البيت مسرعًا ويأخذ المشلح المعلّق، ويمضي بغض النظر عمن يقيم المناسبة!!

وأذكر أنه ذات مرة ذهب لبيت شخص كبير في الدولة، ولما رأى ما ببيته من بهرج الدنيا وزخارفها هزَّ رأسه قائلًا: الملك لله!!

❀ ❀ ❀

حبه للعلم

من توفيق الله له أن يسَّر له طريق العلم، ولقد ساعد على ذلك تشجيع والديه ودعاؤهما رحم الله الجميع؛ فلن أنسى ما قاله والدنا الشيخ عن والدته رحمهما الله لما كانت مريضة، قال: كنت معها في محيرقة عند أخوالي، وأقوم بما أستطيع من خدمتها، فكانت تترضى عني، وتقول: الله يرضى عنك كما أرضيتني أو كما رضيت عنك.

وقد روى لنا عمي محمد عن أبيه كيف كان مهتمًا لابنه الذي بدأ ينبغ، وظهرت عليه صفات النجابة، وقد قال أبياتًا قالها والدهم في أبنائه، وخصَّ الوالد الشيخ عبد الله بالذكر، ومنها:

إذا جنَّ ليل واستنارت نجومُه ... أبيت أراعي نجمَه حين يطلعُ
وأذكر أولادي وأشكو بعادَهم ... وأدعو لهم ربًّا يراني ويسمعُ
فيا رب عبـــدالله وفِّقْه للهدى ... وجنِّبْه محظوراتِ مـــا يُتوقعُ
وســـدِّد به في كلِّ أمر يريده ... فلا يشـــتكي إلا إليك ويفزعُ
ويسِّـــر له رزقًا حلالًا مباركًا ... ينال به خيـــرًا وللبـــر يصنعُ

ولقد كان والد الشيخ طالبًا للعلم حسن الخط... فقد حكى ابنه محمد حفظه الله (عمي) أنه كان حسن الخط، وكان في وقته لا يوجد في كل بلد غالبًا أحد يقرأ ويكتب إلا إمام المسجد والقاضي إن كان في البلد قاضي، وكل من أراد إرسال رسالة توجه للإمام يقرأها له، وكان جدي رَحِمَهُ اللَّهُ يقوم بهذه المهمة وقد كتب رسالة لإحدى البلدات وأعجبوا بخطه، وطلبوا منه أن يرسل لهم خط يكون قاعدة لأبنائهم يتعلمون الخط منه، وقد كتب لهم ثلاثة أسطر، سطر بقلم أخضر وسطر بقلم أحمر والثالث بقلم أزرق.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ قد حدثت له حادثة لم تعقه عن العلم والكتابة فقد كان أحيانًا يقضي وقت فراغه بصيد الطيور التي في النخيل ومرة كانت معه بندقية يوضع فيها بارود يصنع محليًا ويوضع فوقه حجر صغير فأراد أن يقفز أحد الجدران المحيطة بالنخيل وقد كانت البندقية أمامه وهو واضع يده اليمنى على فوهتها ولما لامست الأرض ثارت وخرج البارود ومعه الحجر فمزق يده اليمنى وفقأ عينه وشق شفته وهدم أسنانه من الجهة اليمنى، ثم حملوه للبيت واحتاروا في يده هل يقطعونها أم لا؟ وأخذوا لوح خشب وبسطوها عليه ثم غسلوها بدواء من شجر تدق عيدانه وتطبخ وهي تعقم وتقتل الدود وتلاحم الجروح، ثم شفيت جراحه، ولكن يده أعيبت وضمرت ولم يعد يقدر على الكتابة بها ولا حتى الأكل بها، وكان

يقول: الحمد لله الذي سلم لساني حتى أقرأ به وأخطب، وأخذ يتعلم الخط بشماله حتى أتقنه.

كانت الشرارة التي أوقدت حب العلم في قلب الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ هي ذلك التحدي الذي واجهه به شيخه أبو حبيب رحمهما الله جميعًا.

شرط عليه أن يحفظ القرآن قبل بداية القراءة عليه في كتب العلم، فعكف في المسجد ستة أشهر استظهر خلالها القرآن الكريم.

ومع أن جدي كان طالب علم، وقرأ عليه الوالدُ كثيرًا؛ سواء للتعليم أو للعرض والفائدة، إلا أن حياة الطلب الحقيقية لم تبدأ إلا مع الشيخ أبي حبيب رحم الله الجميع.

وقد صاحب شغفه بالعلم هبة من الله للشيخ الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فقد وُهِبَ قوة في الحفظ والذاكرة، حتى إن أعمامي يسألونه دومًا عن تفاصيل أحداث وقعت منذ سنوات، فيخبرهم بها وبالتواريخ!! فيضحكون عجبًا من دقته.

يقول الشيخ أحمد المهنا[1]: (الشيخ عنده استذكار لبعض الأمور، وإن كانت ليست مكررة، مثل وصية أحمد هذا الذي يدعي أنه خادم حجرة النبي ﷺ كنت أسأله وما أتوقع أن عنده جوابًا.

---

(١) محاضرة للشيخ أحمد المهنا، متاحة على الرابط التالي:
http://www.liveislam.net/browsearchive.php?sid=&id=64742

قلت: يا شيخ أول سنة انتشرت فيها وصية أحمد هذه المكتوبة عام كم؟

فقال مباشرة: عام ١٣٥٦هـ).

يقول عمي محمد حفظه الله: (كان أخي الشيخ عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ يخبرنا عن مقدار المسافات، يقول: إن الفرسخ ثلاثة أميال والميل ألف باع، وهو في اللغة مقدار مد البصر والباع أربعة أذرع، والذراع أربع وعشرين أصبع، والأصبع شعيرات بطن لبطن... إلخ، وهذه القياسات معروفة قديمًا).

وكان يهتم للحفظ ويقول كما قال الشاعر:

عليك بالحفظ بعد الجمع في الكتب فإن للكتب آفات تفرقها
فالماء يغرقها والنار تحرقها واللص يسرقها والفأر يخرقها

وكان عنده موهبة بمعرفة المخطوطات القديمة التي بدون نقط، وقد ساهم مع آل قاسم في نسخ وتصحيح فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحم الله الجميع.

❀ ❀ ❀

متميز في التواريخ:

قال أحد الكُتّاب في موقع ملتقى أهل الحديث[١]: (ومما يُذْكَر عن الشيخ العلامة عبدالله بن جبرين، أن أحد طلابه أخبرني أنه سأل الشيخ عن مسألة، فقال الشيخ عبدالله: هذه المسألة تذاكرتها مع فلان وفلان وفلان بعد المغرب قبل نحو ثلاثين سنة..!!).

ويقول الشيخ أحمد المهنا أيضًا: (وفي إحدى السفرات أخذ الشيخ يصف لي الطريق، يقول: ستأتينا قرية كذا، مركز كذا، محافظة كذا.

والأعجب من ذلك أنه يأتي بالفروق بالكيلومتر، يقول: المسافة بقي عليها كذا، وإذا مر وادٍ قال: هذا وادي كذا!!

مررنا بوادي الرشا المعروف، فأخذ الشيخ يسرد قصائد بالعامية عن هذا الوادي.

ثم مررنا على مجموعة من الأشجار، فقال: هذا الشجر يُؤخَذ منه كذا، ويُصنَع منه البارود الذي يُوضع في أحد الأسلحة القديمة وهو المقمع).

---

(١) انظر الرابط التالي: http://www.hlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=4931

وقد ذكر عمي محمد حفظه الله: أنه كان دقيق الملاحظة حتى إن أحد أصحاب الرسائل العلمية كتب في أولها إهداء إلى والده، ووقع (ابنك البار) فاعتـــرض الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك، وقال: هذا تزكية لنفسك.

❀ ❀ ❀

صور من تواضع الشيخ مع شدة اجتهاده:

ومع هذا كله فقد كان الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ يستصغر نفسه، ويرى أن ذلك أمرًا عاديًا؛ ففي مقابلة مع مجلة البيان سُئل عن فتاواه، وأنها تلقى ارتياحًا عامًا، فأجاب بقوله: (أعترف على نفسي بالقصور والنقص، وكثرة الخطأ، وأسأل الله العفو والغفران، وستر العيوب، والنقائص)[1].

والعجيب حقًّا أنه مع اتهامه لنفسه بالفتور والتقصير في طلبه للعلم، فإن الواقع ينافي ذلك؛ فإنه منذ صغره يشهد له أقرانه بزهده في اللعب معهم، وحبّه الشديد للكتب، وانكبابه عليها.

والمطَّلع على سيرته يعلم أنه ما إن يرى كتابًا مع أحد حتى ينجذب إليه، وقد يأخذه وينشغل به ويقلبه.

وأذكر أنني رأيته يُهدَى له كتاب في الحديث، ففرح به، وسأل عن مؤلفه، وجلس يقرأ فيه، ونسي نفسه، ونسي أننا جئنا للسلام عليه، فقالت إحدى الحاضرات لمن أهدى الكتاب: لِمَ تهديه الآن؟ الآن لن يكلمنا، بل سيغوص في كتابك هذا!!

لكنه أغلق الكتاب بسرعة لما سمعها، وقال: نعم... ماذا عندكم؟

---

(١) انظر الحوار كاملًا في مجلة البيان، العدد ١٣٢، شعبان ١٤١٩هـ.

كان في أسفاره معنا لا بد أن يصطحب حقيبة للكتب، ويجعلها بقربه في السيارة، ويقرأ منها أثناء الطريق كله حتى يحل الليل.

ثم يغلق كتابه مكرهًا حيث لا نور ولا ضوء، وعندها يبدأ بتجاذب أطراف الحديث مع مرافقيه.

بل إنه كما ذكر بعض مرافقيه في أسفاره القصيرة يقلب السيارة إلى حلقة علم ودروس، فلا يمكن أن يرفض طلب أحد طلاب العلم في القراءة عليه؛ بل يشرح للركاب، ولو كانوا اثنين كما يشرح للجماعة في الدرس!

وقد قرئ عليه مرة في الطريق من الرياض حتى القويعية (قرابة الساعتين) فلم يتوقف، أو يطلب التأجيل مع أنه ذاهب لرحلة علمية، فالدروس بانتظاره، والسيارة هي مكان راحته!

ولعل البعض استمع أو رأى لقاءات مع بعض طلابه الذين لازموه؛ فقد ذكر أحدهم أنه سأل الشيخ عن وقت تحضيره للدروس؛ فقال: كنت قبل أربعين سنة أحضّر للدروس، لكن الآن لا أجد وقتًا لذلك، خصوصًا وأن الدرس يتكرر في أماكن عدة فلا أحتاج معه للتحضير.

قال عمي محمد حفظه الله: كان أخي الشيخ عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ أحيانًا كثيرة يدعى لمحاضرة لا يعلم ما موضوعها وإذا وصل المسجد

سأل عن موضوع المحاضرة فإذا بدأ في الكلام أسهب واسترسل وكأنه قد حضر له عدة ساعات.

ومرة حضر لصلاة الاستسقاء فلم يحضر الإمام، وقام الوالد الشيخ عبد الله وألقى خطبة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون.

وحدثه أحد مرافقي الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان متوجهًا لإلقاء خطبة الجمعة وهو يمشي مر ببيت يخرج منه ماء يسيل بكثرة في الشارع، فألقى الخطبة عن فضل الماء ووجوب حفظه وعدم الإسراف فيه في الوضوء وتوسع في ذلك بالأدلة، مع أنه لم يطرأ عليه هذا الموضوع إلا بعد أن رأى الماء يسيل من البيت.

وعندما نكون في نزهة أو في البر يجلس قليلًا معنا، وإذا أحس بأنه اكتفى وعرف أخبارنا أخذ كتبه وذهب لشجرة أخرى أو تحت صخرة وجلس مع كتابه ليؤانسه.

وليس معنى ذلك أنه كان عازفًا عن أهله؛ بل كان ضنينًا بوقته حريصًا عليه.

قال أخي عبد الرحمٰن في كتاب السيرة (أعجوبة العصر): لقد كان غفر الله له حريصًا على الدروس وعلى المحاضرات وعلى إفادة الناس، وليس له اهتمام لا بالتنزه ولا بالتفسح، يقول صهره حمد بن عبد العزيز: (كنا في مدينة النماص في

جنوب المملكة، وكان جوها وطبيعتها في الصيف ممتعة، فصام ذلك اليوم وصمت معه، فقال ابنه سليمان: سنخرج للمنتزه، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: لن أخرج معكم؛ فإني لن آكل ولن أشرب، فألحّ سليمان عليه، وقال: اخرج معنا، وإذا أقبل العصر اذهب للدرس فهو قريب عندنا.

ومرة كنا في الرايس ـ وهي قرية على الساحل الغربي للمملكة ـ، ذهبنا للنزهة مع عدد من الأقارب والعوائل، فلما مضى يوم سألنا: ما رتبتم دروسًا ولا محاضرات؟

فقلنا: إنما جئنا للنزهة، فتكدّر خاطره، فاتصلنا ببعض الإخوة ورتبوا له محاضرة في مدينة بدر، فذهبنا معه رَحِمَهُ اللَّهُ مع بعض الشباب، وجلس الباقون عند العوائل، ولم نرجع إلا بعد العشاء، ولما رجع رأينا في وجهه السرور والراحة.

وأذكر مرة أنه دخل علي وقد فتحت في المسجل شريطًا لأحد العلماء يشرح فيه أحاديث نبوية، فوقف وأنصت بكل جوارحه، وكأنه لم يسمع شرحًا لهذا الحديث من قبل.

وأحيانًا يدخل ونحن نستمع لبعض الأناشيد الإسلامية، فيفصل التيار الكهربائي بلا نقاش، ويبدو في وجهه الغضب...، وكأنه يشير إلى أنه لا داعي لها أو لا طائل منها.

مع أن أناشـــيدنا في الماضـــي لم تكن في غيـــر مجال العزة والنضال...، ولم يطغ عليها ما طغى على أناشـــيد هذا الوقت من ميوعة ورقة، والله المستعان.

وكنا في البيت لا نجد وقتًا نســـتفتيه فيـــه إلا إذا جلس على المائدة، أو كان يستعد للخروج للصلاة أو غيرها، فليس في جدوله أن يجلس هكذا فارغًا.

وكان من حبه للعلم واستمتاعه بالتعليم والدروس التي يلقيها في كل مكان، وقد حصل أن حِيلَ بينه وبينها فترة، فافتقدها وحنَّ إليها وكأنه هو المستفيد!!

❀ ❀ ❀

حرص الشيخ على درس الفجر:

ولم يكن يفرّط في درس الفجر أبدًا، ولو كان مسافرًا في الليلة السابقة، فقد ذكر أحد أبناء عمومتي أنه كان مسافرًا مع والدي لبلدة القويعية، وفي طريق العودة مساءً انفجر أحد الإطارات، فتوقفوا ليصلحوه، فقال والدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخشى أن يتأخر بنا الوقت فيفوتني درس الفجر، فأنت أصلح الإطار، وأنا سأقف في الطريق لعل أحدًا يعرفني ويأخذني، فلبس المشلح ووقف حتى جاء أحد الطلاب وأخذه معه للرياض (وكان في الحقيقة لا يحب أن يعرف أحد شخصه إلا إذا اقتضى ذلك مصلحة كما في مثل هذا الموقف).

❀ ❀ ❀

إكرام الشيخ لطلابه ومحبيه:

وكان فيما مضى يعقد دروسه في البيت، ويأتي الطلاب ليتحلقوا حوله في فناء المنزل فنفرش لهم السجاد، وكان يأمر أهله بإعداد كميات كبيرة من الشاي والقهوة والزنجبيل أو النعناع، وكذلك لما انتقلت الدروس للمسجد استمر في تقديم الشاي والقهوة مع أنه مُرهِق لأهله؛ حيث لم يكن عندهم خَدَم في بداية الأمر فكانوا هم الذين يغسلون الفناجين والأباريق الكثيرة.

وكان أحيانًا يُلام في ذلك لكنه يقول لمن لامه: إنه قليل عليهم، فهم كثر، لكن هذا قد يُعطى لمن في الصف الأول فقط، وينشّطهم.

ولا يمكنني نسيان الطلاب وهم مجتمعون في بيتنا، فقد كنت أنظر إليهم وأنا صغيرة من ثقب بالباب الداخلي، وأستنكر اجتماعهم على والدي وإنصاتهم له!

ولم أتجرأ يومًا على الخروج لهم أو اللعب بقربهم؛ لأني أعرف جدية الأمر، وأنهم لم يحضروا للعب.

وقد ذكر عبدالرحمٰن ابن عمي ناصر حفظه الله وهو ممن شرف بصحبة الوالد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في محاضراته وأسفاره: أنه لم يكن ينصرف من درس ولا محاضرة حتى تنتهي جميع الأسئلة،

فيُجيب عنها كلها؛ بل قد يأخذ الأوراق من المقدّم ويقرؤها بنفسه، وقد يعاتب المقدم إذا اعتذر عن باقي الأسئلة لراحة الشيخ.

ويقول عبدالرحمٰن ابن عمي: (وكان الشـــيخ يركب السيارة والناس متحلقون حوله؛ يسألونه ويستفتونه، فيجيبهم، ويؤكد على من يقود السيارة ألا يمشي حتى ينصرف الجميع).

❀ ❀ ❀

من أعجب المواقف العلمية للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

لم يكن يمل أو يكل أبدًا من التحدث والنصح والتدريس، فلا يحاول الاختصار؛ بل تعجب من جَلَده في اتصال الدروس من الصباح إلى وقت متأخر من الليل دون ظهور آثار الملل، وقد قيل له مرة: لِمَ لا تخفف على نفسك بعض الدروس، فقال: إني أجد راحتي في ذلك، وأحس بلذة في التعليم والشرح ورؤية الطلاب، ويلاحظ هذا بيّنًا في ابتهاجه لقرب الدروس عند نهاية الإجازات.

وقد يلاحظ عليه أنه كان يرفع صوته ويُجهد نفسه أثناء إلقاء الدرس ويتحمس؛ ليذكّرنا بوصف خطبة المصطفى في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ[1].

حتى إن زوجته كانت تمازحنا وتقول: إذا عاد من الدروس لا يتكلم معنا إلا قليلًا؛ لأنه ملَّ مِن الكلام وتعب.

والحقيقة أنه إنسان صموت... يُضفي عليه صمتُه وقارًا وهيبةً غير متكلفة ولا مصطنعة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٦٧).

ولم يكن رَحِمَهُ اللَّهُ يعتذر عن دعوة لبذل علمه أبدًا إلا لموعد أو عذر قاهر معروف، فقد ذكر لي أنه دُعي مرة لإلقاء درس في مسجد فاعتذر بدون إبداء السبب، فأثقل عليه الداعي بالتكرار وألح عليه حتى استجاب وهو متعب جدًا، فلما كان في الدرس أُغمي عليه وسقط من التعب والإرهاق، فعرف الجميع سبب اعتذاره عن هذا الدرس.

وكثيرًا ما يقرأ عليه الطلاب في البيت أو المسجد مجتمعين أو مفترقين، فيشرح لهم ما أشكل، ويصحح لهم إن أخطأوا، وقد يواظب بعضهم سنوات طوال على هذه الطريقة؛ كجماعة من أهل قرية نائية تبعد عن الرياض ٤٠٠ كيلو كانوا يحضرون لبيتنا مرتين شهريًا ليشرح لهم من عدة كتب يقرأون عليه منها.

ومن أعجب المواقف في موضوع القراءة على الشيخ الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ أن رجلًا من اليمن عمره قريب من السبعين، نطقه عسير وقراءته ضعيفة جدًا في القرآن الكريم، كان يأتي يوميًا للوالد حينما كان في حي السبالة، يقرأ كل يوم خمس آيات أو ست، كان عنده همة في الحضور والمواصلة، وكان عند الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ صبر واستعداد ليستمع له، قرأ سنينا زادت على خمس عشرة سنة، وكان يحاول تصحيح قراءته فلا يفيد معه، فلا أدري أأعجب من همة هذا، أو من صبر الوالد عليه!

❀ ❀ ❀

افتقاده لكتبه وحرصه عليها:

وأذكر في أمر حبه للعلم أني كنت مع أهلي في مكة المكرمة، وكان الوقت يمر طويلًا عندي فلم أكن أذهب للصلاة بالحرم في كل الأوقات؛ لأن معي أطفالي، وإذا خرج الرجال للصلاة أسارع لمجلسهم وآخذ كتابًا من كتب والدي رَحِمَهُ اللَّهُ ثم أعيده له خلسة كما أخذته، وافتقد كتابًا من كتبه مرة، ولما سأل عنه قلت: إنه معي، فأنا لم أحضر معي كتبًا لتسليني، فلما ذهب للصلاة التالية رجع ومعه نسختان من كتاب ضخم اسمه (أخبار الصالحين) أعطاني نسخة وأخذ الأخرى له. فحين اشترى كتابًا لي لم يفوّت على نفسه فرصة الحصول على نفس الكتاب!!

وكان يفتقد كتبه ويسأل عنها، وأذكر أنه افتقد كتابًا اختفى من مكتبته، وجلس يسألني عنه لمدة تقرب من السنة، وأنا والله لم آخذه وكأنه ما صدقني، وكان يقول: تأكدي، أين ذهب الكتاب؟ ولا أعلم هل وجده أم اشترى نسخة أخرى؟.

ذكر لي عمي محمد حفظه الله: أن والدي رَحِمَهُ اللَّهُ منذ صغره كان مغرمًا بالكتاب حتى إن أغلب مكثه كان في مكتبة والده؛ لأن فيها كتب كثيرة ومخطوطات وغالبها لجد الأسرة حمد بن جبرين الذي ذكر ابن بشر أنه عالم القويعية وأميرها، وقد أوقفها وجعلها

على يد الصالــح من ذريته، وقد اهتم بها الشــيخ ورتبها، وهي موجودة الآن عند أحد إخوته.

يقول أخي عبد الرحمٰن في كتاب أعجوبة العصر: لما اســتقر في بيت الســبالة، اتخذ غرفة كاملة في الســطح مكتبة له، وقام بجلب نجار ليفصّل له أرففًا خشــبية، ففصّل لــه أرففًا على هيئة أرفف المكتبات التي تصفّ فيها الكتب، أي بدون أبواب، وكانت عالية إلى السقف لتتسع لكتبه الكثيرة، ولذا اشترى سُلمًا ليصعد عليه إذا أراد جلب كتاب من الأرفف العالية، وما زلنا نحتفظ بهذا السُلّم ذي الذكريات الجميلة.

وكان يقضي معظم وقته ـ إذا لــم يكن في التدريس ـ في هذه المكتبة، يجلس في داخلها أو يستند على الباب أو يستند على جدارها الخارجي، يحكمه في ذلك النهار والليل والصيف والشــتاء؛ حيث لا يوجد في تلك الأيام تكييــف ولا إضاءة مناسبة.

ولم يكن يبالي بأسعار الكتب، ولا يناقش فيها مع أن مكتباته تزخر بآلاف الكتب إلا أنه لم يزل يشتري المزيد ويستقبل الهدايا، وامتلأ بيته كتبًا حتى صار عنده في بيته أربع مكتبات خاصة به، فضلًا عن الغرف التي تعتبر مخزنًا للكتب التي ســتوزع أو التي طبع منها نسخًا.

وعند مجيئنا للسلام عليه في بيته نكون ممسكين بأطفالنا الصغار محذرين إياهم من العبث بكتبه؛ لأننا نعلم أنه يضايقه ذلك أشد المضايقة.

ومرة وجدته إحدى أخواتي يقرأ في كراسة قد كتبها قبل عشرات السنين، وهي عن رحلته الدعوية لشمال المملكة، ويحاول أن يصحّح ما اختفى وبهت من كتاباتها، وكانت القراءة تشق عليه بها لِقِدَمِها، وكان خائفًا أن تفنى، فعرضتْ عليه أن تقرأ عليه وهو يصحّح فوافق فرحًا، لكنه لم يفكر أن يطلب منها ذلك أبدًا؛ فقد اعتاد على الاعتماد على نفسه ـ بعد الله ـ في كل شيء.

لم يظن يومًا أنه امتلأ علمًا فيعزف عن تعلم شيء، فقبل فترة قريبة أنجبتُ بنتًا أسميتها (لميس)؛ حيث كنت معجبة بالاسم منذ صباي، فقد قرأت أنه عربي أصيل، وليس مشهورًا عندنا، ومعناه المرأة ناعمة الملمس، وكانت إحدى ملكات اليمن قبل البعثة اسمها لميس، ولم يكن الاسم قد انتشر إعلاميًا، وقد بحثت فوجدت أنه اسم لامرأة خزرجية بايعت رسول الله ﷺ؛ فلما قلت ذاك لأبي استنكر، وقال: لا أعرف صحابية بهذا الاسم، وراح يبحث في الكتب حتى وجد في أحد كتب الحديث إسنادًا فيه امرأة اسمها لميس ولكنها مجهولة!

رجل مشغول ومسن ومتعب، وله قدره وجاهه، لم يصبر عن البحث في كتبه عن اســمٍ لطفلة، وكأنه خجل أنه لم يسمع بهذا الاسم... فأحب أن يتعلم ويستزيد حتى وهو بهذا العمر!!

وكنت أقول لأبي: إننا قد درسنا شاهدًا من الشعر في النحو يقول:

يــا ليتنــي وأنــت يــا لميس
فــي بلدة ليــس بــهــا أنيس
إلا اليعــافــيــر وإلا العيــس

وكلما رآني بعدها ومعي ابنتي لميس قال لي: ما هو البيت؟ فأذكره بصدره ثم يكمله حتى حفظه وفــرح بحفظه، وكلما رآها كرره، وكنت أســأله عن معناه، وعلى أيّ شــيء استُشهد به في النحو، فيخبرني ويشرح لي.

وفي أحد الأيام أُغلــق عليه باب إحدى الغــرف في البيت، وعجز عن الخــروج، وطرق الباب حتى يســمعه أحد المارة في البيت، فلم يســمعه أحد، وجلس فيها مدةً حتى ســمعه أحدهم، وفتح له بعد حوالي ساعة ونصف، فســألناه: ماذا فعلت في هذا الوقت الطويل؟ فقال: أخرجت ما فــي جيبي من أوراق وجعلت أقرؤها وأفرزها.

❀ ❀ ❀

وُدّ الشيخ بمشايخه وطلابه:

وكان يحب أهل العلم وطلبته ويخدمهم بجاهه، فيندر أن ترى أحد طلابه لم يكن للشيخ فضل خصه به، وكان يتواصل باستمرار مع المشايخ، ويزورهم ويسأل عنهم، وكان بينه وبين كبار العلماء نوع من التواصل؛ فأذكر مرة أنه دقّ هاتف بيتنا، ولما رفعت السماعة عرفت الصوت، وكان مألوفًا أسمعه كثيرًا في إذاعة القرآن الكريم، وكان الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقال: نادي لي الشيخ عبد الله. فقلت زيادة في التأكد: من أنت؟ فقال: محمد مهدي، فقلت في نفسي سبحان الله! صوت هذا الرجل قريب من صوت الشيخ ابن عثيمين، وقلت لأختي لأخدعها: هذا ابن عثيمين في الهاتف، فذهبت أختي وأخبرت أبي بسرعة، ولما جاء والدي قلت لها: هذا شخص شبيه بابن عثيمين، وليس هو، ما أعجلك في إخبار والدي! ولما أنهى والدي المكالمة سألناه: من هذا؟ فقال: ألم تقولي إنه ابن عثيمين. فقلت: كلا، لقد قال لي: إنه محمد مهدي. فنهض والدي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يقول بكل هدوء: إنه مهديّ بإذن الله. وخرج وتركنا في حيرتنا.

وكلما تذكرت هذا الموقف رأيت فيه تقاربًا كبيرًا بين والدي وبين الشيخ ابن عثيمين رحمهما الله فكلاهما كان يحب إخفاء شخصيته تواضعًا.

وأتذكر مرة أننا أتيناه بسؤال مكتوب من إحدى معلماتنا في المرحلة المتوسطة فاستنكر كثرة أسئلة هذه المعلمة ودقتها، فقال: من تكون هذه المرأة؟ فقلنا: هي بنت محمد القاسم، فقال: هذه أبوها خير مني وأعلم... فرفض أن يجيب على سؤالها، وقال: لتسأل أباها... رحم الله الجميع.

وكان والدي رَحِمَهُ اللَّهُ يتفقد العلماء، ويذكر أحدَهم أحيانًا، ويقول: لم نره منذ مدة، فيطلب من أحد أبنائه الذهاب إليه؛ بل إن عبدالرحمٰن بن ناصر قد ذكر أن أبي رَحِمَهُ اللَّهُ قبل مرضه، بأسبوعين قال له: أريد أن أزور الشيخ ابن غديان، فذهب به إليه، وصليا العشاء معه، وزاراه في بيته.

وفي آخر الأيام قبل مرضه أيضًا ذهب به جزاه الله خيرًا ثلاث مرات لدار الإفتاء لزيارة أعضاء اللجنة والسلام عليهم.

وقد التقى أغلب المفتين في العالم الإسلامي في مؤتمر الفتوى الذي حضره قبل مرضه بأسبوع واحد، وكأنه يودّعهم رَحِمَهُ اللَّهُ وجعل الجنة مثواه.

عباداته

لقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب طاعة وحب للصلاة، وكان لا يترك صلاة الليل، فإن كان قد سهر في الليل فإنه يكتفي بنصف ساعة يصليها قبل أذان الفجر ولا يدعها أبدًا، وكان يصلي إما في مجلس النساء، أو في غرفة الطعام، أو في الصالة، ولم يكن يترك صيام أيام البيض ولو شقت عليه، وكثيرًا من الأحيان يضطر للإفطار في السيارة، ويأتي معه بفطور متواضع؛ لأن عنده محاضرة أو درسًا بعيدًا عن بيته.

أما بالنسبة لصلاته ونوافله فأحيانًا نكون في سفر في الطريق فننزل للصلاة وننتهي كلنا، وهولا يزال يصلي، ويطيل فيها... وكان يلوم الأئمة كثيرًا في صلاة التراويح والقيام على تقصيرهم إياها.

وإذا كنا في الطريق فإنه يأخذ كتبًا، أما إذا كان سفرنا في رمضان من أو إلى مكة المكرمة، فإنه طول الطريق ـ وإن أخذ كتبًا ـ يقرأ القرآن الذي يحفظه عن ظهر قلب.

وقد كنت أحيانًا أراقبه وأقول في نفسي: غير معقول، لا بد أن يغلط أو يتردد في آية ما، لكنه يستمر يقرأ بصوت خافت وهو ينظر إلى الطريق، وكأنه ينظر في صفحة المصحف، حتى يأتيني النوم. وأحيانًا أستيقظ وهو على حالته تلك.

❀ ❀ ❀

حرص الشيخ على إخفاء أعماله الصالحة:

وكم كان حريصًا رَحِمَهُ اللَّهُ على إخفاء أعماله، وأذكر أنني رأيت وأنا صغيرة حوارًا معه في مجلة ويقول فيه: ختمت القرآن حفظًا وعمري ١٦، فذهبت مسرعة لأريه إياها، وقلت: هل ختمت القرآن وهل تحفظه الآن؟

فحاول إخفاء هذا الأمر عني مع صغر عمري، وقال: ربما هو عبد الله الجبرين أحد أبناء عمنا وهو يشتغل في هذه المجلة.

قال أخي عبد الرحمٰن: لم أقدر أن أوافق أبي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يصلي الليل إذا كنا في سفر، فغالبًا ما أنام قبل ذلك، لكن سليمان أخي قال: أما أنا فإنني اكتشفت أنه يصلي بخفية شديدة، فإذا كنا في سفر ودخلنا السكن أريه مكان سجادة الصلاة قبل النوم، وإذا جاء الصباح رأيتها في مكانها، وكأنها لم تُمَسّ، فقمت مرة بوضع علامة خفية عليها لأرى هل تحركت أم لا، ولما جاء الصباح وجدت العلامة قد زالت والسجادة في نفس مكانها، وهذا دليل على شدة إخفاء والدنا رَحِمَهُ اللَّهُ لعمله الصالح.

وقد ألح عليه في السؤال أحد طلابه وقال له: في كم تختم القرآن؟ فأجاب بحسرة: لا أختمه إلا كل عشرة أيام لكثرة أشغالي، أما في رمضان فأختم كل ثلاث ليال.

وقد ذكر أحد طلابه أنه رافقه في رحلة للحج، فمنذ أن ركبوا السيارة حتى وصلوا الميقات وهو يقرأ، ولم يتكلم معهم إلا ببضع كلمات، ولو شاءوا لأحصوها لقلّتها، قال: ولما وصلنا الميقات بدأ يلبّي، واعتمرنا وكان يسبقنا في المسعى لخفة وزنه، مع أنهم في العشرين وهو في السبعين، ولما وصلوا مكان إقامتهم ناموا، ولما استيقظوا للفجر وجدوه قائمًا يصلي الليل بعد هذا التعب والسفر والعمرة في الزحام، رحمه الله رحمة واسعة.

❀ ❀ ❀

حب الشيخ للصدقة وبذلها لمستحقيها:

وكان يحب الصدقة ويعطي كثيرًا، ومرة كنا سنسافر لمكة، وقد ركبنا سيارتنا، فجاء سائل يطلب مالًا من أبي، وأخرج أبي ما في جيبه ووجد ورقة نقدية فئة ٥٠٠ ريال، ثم حاول إدخالها، لكنه رأى لهفة السائل عليها فأعطاه إياها وسط استنكارنا.

وقد ذكر أخي عبدالرحمٰن أنهم في كل رحلة لمكة يصرفون له أموالًا ولا يخلو جيبه من النقود التي يوزعها على الضعفاء في الحرم، ولم يكن يفرّق بين الخمسة والخمسين، كلها يدفعها ولا يضنّ بما في جيبه.

وقد كنا معه مرة في الحرم المكي وتأتيه النساء الفقيرات تسألنه المال. ويقول: استري وجهك، فكن يسترن وجوههن طلبًا للمال كلما مر بهن ثم يعطيهن.

وفي رمضان كان الناس يتهافتون عليه وأكثرهم طلاب مال، ومنهم المحتاج ومنهم غير ذلك، إلا أنه يحسن الظن فيهم جميعًا، ويجزل لهم العطاء، ثم صار بعض أهل الخير يعطونه زكاتهم ليوزعها، فصار يتحرى الصادق ويعطيه؛ لأنها أمانات.

يقول أخي عبدالرحمٰن: بعد أن انتقلنا من بيتنا في حارة السبالة إلى حي شبرا بقي بيت السبالة فارغًا، ثم إن أحد جيرانه

اقترح علينا تأجيره مستودعًا للأواني، فكنت أنا أتابع تحصيل الأجرة، وكان الوالد إذا تأخرت يحثني ويلومني، فآتي له بالأجرة كاملة، ولا أعلم سبب حرصه حتى دخل المستشفى رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال لي: (احرص على عمارة بيت السبالة، فإني قد أوقفته في أعمال البر)، فعلمت حينها حرصه على الأجرة؛ حيث ينفق ما يأتي منه في أعمال الخير.

وكان في كل يوم من أيام رمضان يجتمع عنده هؤلاء الفقراء بعد صلاة العصر، فيؤخر توزيع المال عليهم حتى قرب المغرب؛ لكي لا يذهب أحد منهم حتى يفطر عند الشيخ، حيث يضع الشيخ مائدة إفطار طويلة لهم، وذلك من أول رمضان حتى يذهب الشيخ إلى مكة في العشر الأواخر أو قبلها بقليل.

وأحيانًا يأتي بعض شباب الأسرة ليساعدوا في التوزيع فيدخل عليهم الشيخ، ويحثو من المال ليوزع هو بنفسه. فقد كان يفرح بالعطاء أكثر ممن يعطيه... كأنه ممن قيل فيهم:

تراه إذا ما جئته متهللًا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وفي رمضان يصلي القيام في مسجد قريب من بيته، وكان يطيل إمامه الصلاة حتى قبيل الفجر، وكان يصليها رَحِمَهُ اللَّهُ كاملة وهو واقف مع كبر سنّه، ويكون قريبًا من الإمام يذكّره الآيات إذا نسيها. وكنا نسمع صوته ونحن في البيت، وهو يرد الإمام إذا أخطأ.

أما في التراويح فكان يصلي كل يوم في مسجد، ويلقي كلمة بعد الصلاة ثم يفتي الناس.

ذكر لنا إخوتي قصة عجيبة تبين لك كم كان ذا قلب سمح وخلق عالٍ...؛ فقد حكوا أن أحد الفقراء الذين يترددون على الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان أعمى، وكان يأتي في كل شهر أو شهرين ويصلي مع الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ ثم يأتي الوالد يقوده من المسجد إلى البيت، ويعطيه ويجزل له العطاء، وكان يدعوه للغداء معه، ثم اكتشف إخوتي أنه ليس بأعمى فقد رأوه يقود السيارة، فأبلغوا عنه الشرطة فسجنوه، وطالب إخوتي بتسديد المبالغ التي أخذها هذا المخادع، لكن والدي رَحِمَهُ اللَّهُ قال لهم: كلا أطلقوا سراحه ولن يضرنا.

وعندما توفي الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ جاءنا خلق كثير يقولون: مَن لنا بعد الشيخ! فقد كان يعولنا ويقوم علينا، ولم نكن نعلم عن ذلك شيئًا، رحمه الله رحمة واسعة.

❀ ❀ ❀

زهده وورعه

في كل حياته كان رَحِمَهُ اللَّهُ كارهًا للدنيا، آخذًا بالقليل منها، ويظهر هذا في منزله وهيئته؛ فمنزله هذا قد بُني منذ قرابة ثلاثين عامًا، وقد عرض عليه من بعض كبار الشخصيات منازل وسيارات، فكان يرفضها ويزهد فيها، وكان بعض أهله يقنعونه ببناء بيت جديد، فكان يقول (ما يمدينا)، يقصد: لم تعد هناك فرصة للبقاء أكثر مما مضى، وعندما كان يقال له: إن البيت ضيق، ولا بد من بيتٍ أوسع منه، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: وسوف نوضع بأضيق منه، (يقصد القبر)، جعله الله عليه واسعًا مد البصر.

ولذلك كان كل تجديد في البيت لا يأتي إلا بعد إلحاح شديد من إخوتي.

وقد كان يحب أشياءه القديمة، حتى إنه كان لديه ساعة حديد أثرية بها سلسلة تتدلى من جيبه الأمامي، ولم يكن يستغني عنها، ولعلها كانت قديمة جدًا ولم يكن يستحيي منها؛ بل يفخر بها

ويحبها. وكان يقول عنها: (اشتريتها بسبعة وعشرين ريالًا، وأصلحتها بخمسة ريالات، وعاشت اثنتين وثلاثين سنة، كل سنة بريال)!!

ولا يحب أن يشتري ملابس جديدة كثيرًا؛ بل كان يقول: ملابسي جيدة، ولا عيب فيها، وكان إخوتي وزوجته يحتالون عليه، فيأخذون القديم من الملابس ويضعون بدلًا منه لبسًا جديدًا، وكذلك الأحذية وغيرها.

في إحدى ليالي الصيف افتقدته أمي رحمهما الله وقبل الفجر بمدة بسيطة وجدته نائمًا في فناء البيت الذي كان حينها عبارة عن حصى وتراب، وقد كوّم كومة من التراب وجعلها كوسادة له، ولم يطلب فراشًا ولا لحافًا ولا وسادة؛ بل نام هكذا في العراء، وفي الليلة التي تليها هيّأت له والدتي رحمها الله فراشًا مريحًا وفرشته له في نفس المكان فنام عليه.

حكت لنا أمي رحمها الله وإياه أنه كان قبل دخول الكهرباء يخرج في الليل إذا كان القمر مكتملًا حتى يقرأ على ضوئه، ولا يفوت عليه ذلك حتى إذا كان الشتاء فإنه يخرج أيضًا، ويجلس بين برميلين من الحديد حتى لا تؤذيه الرياح الباردة.

ذكر عمي محمد حفظه الله أنه في عام ١٣٦٨هـ جلس في مسجد الرين لتعليم أولاد الرين حروف الهجاء والقرآن الكريم، وفيهم من عمره ٨ سنوات وفيهم من عمره ١٨ سنة، وكان

يدرسهم بلا مقابل لشدة حبه لبذل علمه، واحتسابًا للأجر، وكانوا يكتبون في ألواح وهو الذي يصنع لهم الحبر من حجر معين وصمغ، وفي نفس الوقت كان يطلب العلم على يد شيخه أبو حبيب رحم الله الجميع.

واستمر على ذلك فترة ليست قصيرة، ولأن أبو حبيب مخلص له ويعرف أن لديه شيء من العلم ولأن القضاة قليلون، فقد زكاه لدى رئيس القضاة حينها وهو الشيخ محمد بن إبراهيم، وأشار عليه بأن يعينه قاض في الرين ورفع الشيخ محمد بذلك للملك سعود ووافق، وصدر أمر بتعيينه وأمر الملك بصرف ٤٠٠٠ ريال فضة ترحيل له، ويتوجه للرين، وأحضر له هذا المبلغ في كيس، قبل خروج العملة الورقية، ورفض الشيخ عبدالله استلامها وضاق صدره، خشية أن يجبر على القضاء، وأشار عليه بعض أصحابه بأن يقبل ذلك فقال لهم: من أراد أن يذبح بغير سكين فليقض بين الناس والقضاة ثلاثة، قاض في الجنة وقاضيان في النار.

ولما ألح عليه أحدهم بالامتثال لذلك قال له: لو كنت أمشي معك ويليني بئر فهل تُلقيني بها؟ قال: لا.

قال: إذا أشرت علي بقبول القضاء فكأنك ترميني ببئر... فلم يتول القضاء ونجى بنفسه.

❀ ❀ ❀

إكرام الشيخ للعمال والخدم:

أحس إخوتي قبل عشرين سنة بحاجة أبيهم إلى سائق خاص، فأحضروا سائقًا طيبًا للشيخ، لكنه لم يكن يعرف القيادة، فكان الشيخ يقود السيارة، ويجلس السائق في المقعد الذي بجواره، وصار طالب علم جيد، فقد كتب كثيرًا مع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وصار مرافقًا دائمًا له، وكان ينام في بيته؛ بل إن الشيخ لشدة كرمه وزهده كان لا يأكل إلا مع هذا السائق، فإذا حضر الطعام جعل يناديه بصوت عالٍ: (علوي) وكأني أسمعه الآن.

حتى يحضر فيأكلان معًا وكأنهما أخوان، ومكث على هذا الحال حوالي عشر سنين حتى ذهب هذا السائق وأحضروا له سائقًا آخر، ثم طلب السائق الجديد إحضار زوجته وأطفاله فأبى إخوتي، ثم طلب ذلك من الشيخ فسمح له ولم يقدر إخوتي على ردّه.

ثم أتى السائق بوالدَي زوجته ليعتمرَا وكانت إقامتهم كلهم في بيت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يكن يتذمر أو يحس بالضيق؛ بل كنا نسافر بهذه العائلة كاملة معنا وفي سياراتنا، ويسكنون في نفس سكننا حتى ذهب هذا السائق ولم يمكث طويلًا.

❀ ❀ ❀

كراهية الشيخ للإسراف:

كان يكره الإسراف، ويمقته أشد المقت، فإذا رآنا متحلقين حول الطعام وغالبًا ما يكون كثيرًا كَمًّا وكيفًا، فإنه يسألنا: من الذي سيأكل كل هذا؟ لِمَ تكثرون من الأصناف؟ ثم يجعل يعدها كلها: واحد اثنان، حتى الفاكهة صنفًا صنفًا، ولا ينسى الماء فتكون قرابة العشرة أو الخمسة عشر صنفًا؛ فيهز رأسه مستنكرًا.

ومع هذا فقد كان كريمًا معطاءً، لا يمر عليه أسبوعان لا يذبح فيهما ذبائح لضيوفه الكثر، لكنه إذا مر علينا أثناء رفع الطعام يسألنا من يأكل البقية؟ ولا يذهب حتى نطمئنه أننا لن نرمي الطعام وسنأكل منه غدًا أو أننا سنوزعه.

وقد حكى أحد زملائه المعلمين حين كان في الجامعة أنه رأى الشيخ يشرب من ماء الصنبور، فقال له: لماذا لا تشرب من ماء البرادة البارد؟ فقال: إن هذه البرادة اشتُريت من صندوق الطلاب، وربما بعض الطلاب لم تطب نفسه بهذا المال.

هذه رسالة مغلفة بالتقوى والورع لبعض المسؤولين العابثين بالأموال، واللاهثين وراء سراب الدنيا، انظروا كيف كان علماؤكم، وآباؤكم يتورعون عن شربة ماء، يخشون أن تنبت سحتًا!

ومن تواضعه رَحِمَهُ اللَّهُ أنــه إذا أراد شــيئًا ليس قريبًــا منه، فإنه لا يطلب ولا يتكلم إلا نادرًا، ولكن نلاحظه ينظر إليه بطرف عينه بدون أن يشعر أحد، وقد تعودنا منه ذلك، وعرفنا طريقته، فإذا رآه من معه ممن يعرف طبيعته أنه لحظ الشــيء بعينه عرف أنه يريده فقرّبه منه.

فمثلًا ونحن على المائدة والماء بعيــد عنه لا يقول: أعطني ماء، مع أننا أولاده ونتشــرف بخدمته؛ لأنه لا يطلب مطلقًا، فإذا نظر إلى الماء بطرف عينه عرفنا أنــه يريده فنقربه له؛ بل إنه يقوم من المجلس ونحن عنــده فيذهب لمكتبــه أو للمكتبة، ويرجع بظرف أو كتاب، ولا يأمر أحدًا بالإتيان به، مع أنه لو أشــار إلى أحد ممن معه إشارة لسُــرَّ بذلك وفرح بالخدمة، غير أنه تعود أن لا يســأل الناس شــيئًا حتى أبناءه وموظفيه، مستحضرًا في ذلك وصية النبي ﷺ لثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا تسأل الناس شيئًا**»[1].

روى لي عمي محمد أطال الله في عمره علــى الطاعة... أنه عندما كان يدرس في القسم العالي من معهد إمام الدعوة احتاجوه للتدريس قبل أن يتخرج بسنة، وعينوه في المرتبة الثالثة ثم تخرج وأخذ الأول على زملائه، وعين أحد زملائه في التدريس معه على المرتبة السابعة، أما والدي فقد اســتمر على المرتبة الثالثة وكان

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٢٠) وابن ماجه (١٨٣٧) وصححه الألباني.

راتبه حينها ٥٧٧ ريال والمرتبة السابعة التي بها زميله راتبها ١٣٠٠ وبدل نقل ٣٠٠، ولم يعترض على ذلك الوضع؛ بل استمر يعلم الطلاب وأشغله حب العلم عن الانتباه لوضعه ولما اقترح عليه زميل له أن يراجع المسؤولين، قال (ما قل وكفى خير مما ثر وألهى)، ومكث عامين على هذا الحال، حتى فطنوا له، واعتذروا منه، ورفعوه للمرتبة السادسة.

وأيضًا قد روى لي عمي محمد حفظه الله أن والدي الشيخ عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدى مراحل طلبه للعلم كان هناك رجل اسمه محمد بن مسعد وكان ضريرًا وحافظًا للقرآن وقد عين معلمًا للطلاب المبتدئين، وبعد فترة مرض محمد هذا ورجع لقريته وطلب من والدي رَحِمَهُ اللَّهُ أن يدرس بدلًا منه، فاستمر الوالد يدرس وبعد شهرين توفي ابن مسعد رَحِمَهُ اللَّهُ ... وجاء راتب ابن مسعد وكان ٤٠٠ ريال وأعطوه والدي لأنه حل محله فرفض أخذه وقال: أعطوا الراتب ورثته، ثم طلب إعفائه من التدريس ليتفرغ للطلب.

❀ ❀ ❀

أخلاقه

صلة الرحم:

كان أبي رَحِمَهُ اللَّهُ واصلًا لرحمه، محبًا لأقاربه، مقدّرًا لكبيرهم، راحمًا لصغيرهم، ولم يكن يبخل عليهم بأية خدمة، وكان كذلك لعامة الناس.

إذا دعاه أحد أقاربه أجاب دعوته، ولم يكن مرة مفرّطًا في عادة اعتادها، وهي أنه يقضي العيد مع أخواله؛ أهل أمه، الذين يفخرون به ويقدرونه كثيرًا. إلا إن أدركه العيد وهو في مكة فيأتيهم في اليوم الثاني.

أذكر أنني دعوته لزواج أخٍ لزوجي، واتصلت به قبل الموعد بثلاثة أشهر تقريبًا؛ لأن الأولوية عنده لمن دعاه أولًا، فوعد خيرًا، لكن لما اقترب الموعد قال لي بلطف: إنه سيذهب لزواج أحد الأقارب من أخواله، ولأن العريس يتيم فسيفرح بمجيء الشيخ لزواجه، ويحس بأنه أب آخر، فسكتّ.

وإذا كان بين أقاربه وأسـرته فهو الرئيس والمستشار والسيد والمقدَّم، لم يتقدم بجاه، وقد تسـاووا في ذلك، ولكن الله تعالى رفعه بالعلم، فعرفوا له قدره.

قالت لي إحدى حفيداتـه: إن جدي الشـيخ يبالغ في حب زوجي، ويقدّره تقديرًا كبيرًا، مع أنه ليس بطالب علم فتذكرت كم كان يقدّر زوجي، وكم كان يهبّ للسـلام عليه إن زاره، وكذا كل أصهاره وأهله يقدّرهم ويحبهم ولا يتكبر عليهم.

وكان من عادته رَحِمَهُ اللَّهُ أن يشارك في اللقاءات الأسرية، ويؤيد استمرارها، ويحذر من انقطاعها؛ بل إنه يعقد جلسات سمر وفائدة وفتاوى في بعض تلك اللقاءات.

لقد أنشأ الوالد الشـيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مع بعض الأقارب اجتماعًا لآل فهد، وهم فرع من أسـرة آل جبرين، وكان في كل مرة يكون هذا الاجتماع عنـد أهل بيت منهم، وابتدأ بنفسـه، وفي آخر اجتماع حضرته بعد وفاة والدي الشيخ بفترة، سـألت بعض النساء: هل تتذكرن متى بدأ هذا الاجتماع، فقالت إحداهن وهي ممن يوثق في معلوماتهـا: نعم أتذكـره كان عـام ١٤٠٤هـ، وقـد كان في بيت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ... وكان لا يفرّط في حضوره ويأمرنا بعدم التخلف، ولم أكن أحرص عليه في حياته مثل حرصي عليه بعد وفاته؛ لأن عاطفتي تجبرني ألا أتخلف عن أمر كان يحبـه والدي ويهتم به

ولولا هذا الاجتماع لمـــا عرفت كثيرًا من بنـــات أعمامنا اللاتي لا نراهن باستمرار.

وهذا الاجتماع قائم ولا يزال، أسأل الله تعالى ألا يحرم من قام عليه واقترحه من الأجر والمثوبة.

❀ ❀ ❀

خدمة الناس:

لا يخفى على القاصي والداني كم كان أبي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يحب خدمة المسلمين، ويستهلك ما يستطيع من جهده وجاهه، ويشفع لعامة الناس وخاصتهم، ويفرح بذلك أشد الفرح، وأذكر أنني كنت أريد أن أساعد إحدى صديقاتي؛ حيث تعاني من بعض المشكلات الأمنية، فأتيته مرة في الصباح وكان يتناول إفطاره فاستعجل وقام ليتصل بالمسؤول الحكومي، ولكن لم يرد عليه أحد، فقال: تعالي ظهر الغد، وكنت آتيه كل ظهر فيتصل مرارًا ولم يملّ ولم يترك أمر تلك الأخت حتى حذّره بعض إخوتي خوفًا عليه.

وأذكر إن إحدى صديقاتي لم تُقبَل في المدرسة؛ لأنها ليست سعودية، فلما أخبرته بأمرها كتب خطابًا وذهب به أبوها لرئيس تعليم البنات آنذاك، فوافق على الخطاب فورًا.

وحكى لي أخي عن شخص صلى معهم على الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وقال له: إن الشيخ قد خدمني خدمات جليلة، وأنا لم أقابله قط؛ فقد أرسلت له خطابًا أطلب منه شفاعة لأعمل في جهة ما، فأرسل الشفاعة بعد فترة بسيطة، ثم ذهبت بها لمقر العمل، فرأوا أنها لا تصلح لأنه لم يصغها بالشكل المطلوب، يقول: فأرسلت للشيخ أطلب منه إعادة صياغتها، فأعادها وذهبت بها لهم فقبلوها، وها أنا في الوظيفة التي كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سببًا في حصولي عليها، مع أنه لا يعرف شكلي ولا حَسَبي ولا من أكون.

ومرة كان في سيارته في الحج وكانت السيارة تسير ببطء في الزحام وجاء شاب وسلّم على والدي رَحِمَهُ اللَّهُ وقال له: أريدك في شأن خاص، فنزل أبي رَحِمَهُ اللَّهُ من السيارة وهي تسير ببطء، وتنحى مع الرجل، ومكث يتكلم معه فترة طويلة حتى فرغ ورجع أبي رَحِمَهُ اللَّهُ للسيارة، وركب ولم يتحدث عما قال له هذا الشخص حفظًا لسره، مع أن أبناءه هم الذين في السيارة.

وقد كانت بركة شفاعته مشهودة؛ فقد أتته إحدى قريباتنا لتطلب خطابًا منه لتنتظم في دراستها الجامعية، مع أن النظام لا يسمح في مثل حالتها بذلك، وحين اجتمع مجلس الجامعة لمناقشة قضايا الجامعة رُفعت هذه الورقة التي عليها شفاعة الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ اللَّهُ وقيل للحاضرين: هل تصوتون لقبول الشفاعة هذه أم تردونها؟ فقال أحدهم: هذه شفاعة من شخص له الفضل في نشر العلم في هذه الجامعة وغيرها، فلا خير فيمن لا يصوّت له، وإن خالفنا بذلك نظامنا الوضعي، فأيده جميع الحضور سوى اثنين فقط من خمسين. وقال مدير الجلسة: إن قبلتم هذه الشفاعة فلا بد من قبول كل طلب للانتظام، فلما رأى عزمهم قبل طلب العشرات من الطالبات، وأُعدن للانتظام في صفوف الجامعة، وبارك الله في شفاعته لتصل كل هؤلاء.

ومثل ذلك أيضًا ما ذكره عمي محمد أنه كتب مرة توصية لأحد الوجهاء فكتب له مبلغ ٥٠ ألفًا وهو مال يتصدق به الوالد عن هذا

الوجيه، ولما ذهب لمكتب هذا الشخص لصرف المبلغ قالوا له كلا لم يكتب لك إلا خمسة آلاف وأنت زدت الصفر من عندك! فراجع الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الوجيه وأخبره بما فعل موظفو مكتبه؛ فأمر بإعطائه ٥٠٠٠٠٠ نصف مليون... فعوضه الله خيرًا ونفع به أناسًا أكثر.

وذات مرة كان في جولة دعوية شمال المملكة وكان يلقي محاضرة في كل دائرة حكومية تقريبًا، ولما ألقى محاضرة في الشرطة كان فيها أشخاص موقوفون فطلبوا مقابلة الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ، ولما قابلوه أخبروه بقضيتهم وأنهم مظلومون، وصار الشيخ يعرفهم ويعرف أهلهم وهم أهل خير وفضل، وسمح لهم بمخاطبة أهلهم وبعد فترة أطلق سراحهم بعد شفاعته ولله الحمد.

وقد صادفتُ امرأة من الداعيات النشيطات المتميزات، ولما عرفتْ من أكون سلمت علي بحرارة وقالت: رحم الله والدك، فهو الذي شجعني على خوض طريق الدعوة، فعجبت وقلت كيف؟ قالت: إنني أول ما بدأت ألفت كتيبًا صغيرًا ولما طلبت من أحد الدعاة التقديم لي رفض وقال كلا أنا لا أقدم للنساء!!

ووجدت من أوصل كتابي لوالدك الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ اللَّهُ فقرأ كتابي وعلق عليه وقدم بمقدمة جميلة وعبارات مشجعة؛ فعوضني الله خيرًا من ذلك المتورع! والحمد لله.

❀ ❀ ❀

التواضع:

كان يحب الضعفاء والفقراء، وله أحباب كثر منهم من إفريقيا وباكستان وأفغانستان، ففي ذاكرتي عدة أسماء: سفيان، وزركل، وأسفّا، وخالد، والعفري... إلخ.

وكان يجلس مع ضيفه مهما كان، وينبسط له، ولو كان لا جاه له ولا مال؛ فكل المسلمين في نظره سواسية.

وكان يمازح الخدم والعمال، وقد يتحدث ببعض مفردات لغتهم، وأذكر أنه إذا جلس للطعام يقول كلمات أعجمية من عدة لغات، وكلها تعني (كُل)!!

ولا يمكنني أن أنسى ذلك المسكين من إفريقيا الذي جاء به على حسابه ليعالجه، فقد أكل حيوان مفترس يده وهو صغير، وقد مكث عندنا مدة.

ولن أنسى طالب العلم من دول شمال إفريقية الذي هاجر من دولته ليطلب العلم؛ حيث إن دولته تحارب من يبدي تمسكًا بالدين، وتحارب الذين يواظبون على الصلاة في المساجد وتسجنهم، فكان أن أتى لمرافقة الشيخ شهورًا عديدة ثم مضى.

ولا يمكنني نسيان تلك العائلة التي من الشام حيث كفلهم مدة طويلة، وكان ينفق عليهم؛ بل ويأخذهم في سيارته الخاصة

للحج، حتى كبر الأطفـــال وصاروا رجـــالًا، وغيرهم أناس كثر؛ بعضهم نعرفهم، وبعضهم لا نعرفهم.

ولم يكن يحب التباهي في لباســـه، وكان مطبقًا لسنة لبس الثوب النظيف والتطيب في يوم الجمعة فقط، وكان يفعل ذلك كل جمعة.

وأذكر أنه إذا خرج من مســـجده يمشي إلى بيته، ولا يطلب من السائق أن يأخذه لبيته؛ بل كان يحنو على السائق مثل أبنائه، وإذا طلبت منه أن يذهب بنا السائق لمشوار ضروري يقول لي: اذهبن مع إخوتكن، ولا أعلم أهو كره ذلك للاعتماد على السائق أم رأفة به؟

وكان يعطي من هم عنده من طلبة العلم أو السائقين أو غيرهم من أي طعام يأكله أهل البيت، ويقول مثلًا دارجًا عندنا: (النفوس بنات عم)، أي لا فرق بين نفوسنا ونفوسهم.

وقد ذكر لي عمي محمـــد حفظه الله موقفًا قديمًا للوالد حيث كان ينيبه الشيخ ابن باز أحيانًا في وقت الصيف رحمهم الله جميعًا على إمامة المسجد الجامع وكان يتوجه له مشيًا والمسافة حوالي كيلوين ونصف وإذا عرض عليه الركوب يرفض ويقول إني أرى في طريقي بعض الناس فأنصحهم بالصلاة.

وإن نسيت فلن أنسى آخر حجة صحبته فيها، وذلك عام ١٤١٧هـ، ففي اليوم الثامن من ذي الحجة احترقت بعض الخيام في منى، فطُلب من الجميع مغادرة منى لسلامتهم، وليتسنى لفرق الدفاع المدني إطفاء الحرائق؛ فأذكر أن إخوتي قسمونا نحن النساء كل رجل معه امرأتان، وتواعدوا في بيت أحد الأقارب في مكة، وكنت أحرص على أن أذهب مع أحد إخوتي في سيارة مكيفة، لكن ذهبت مع أبي رَحِمَهُ اللَّهُ فكان يمشي على قدميه وتبعته، وقد ظننت أنه سيأخذ سيارة أجرة لكنه مشى ولم يكن يلتفت خلفه، وطال المشي وأنا وراءه حتى تعبت وسألته: إلى أين؟ فقال: إلى مكة، فقلت راجلين؟ فقال: نعم، ومشيت خلفه حتى عطشت، وكنا في وقت الظهيرة، فقلت: أريد ماء.

فهز رأسه حتى وصلنا لمسجد فيه ماء، وقال: اشربي، فاستنكرت أن أشرب من ماء سبيل، فقد اعتدت على الترف، وقلت: أريد ماء من البقالة.

فقال: أمعك نقود؟ فأنا لم أحضر شيئًا!

فسرت وأنا أتساءل كيف لهذا الشيخ الكبير أن يسير كل هذا المدة ولا يشتكي، وأنا لم أبلغ العشرين بعد وأشتكي من طول الطريق وصعوبته؟

حتى وصلنا بعد سير قرابة ساعة كاملة، ووجدنا جماعتنا قد وصلوا منذ زمن وارتاحوا وناموا.

وكنا مرة في الحج، ومر بنا شباب صغار وأخذوا يتلفتون ويتضاحكون، ويقولون بصوت خجول: هذا الشيخ، هذا الشيخ، فاقترب منهم وسلم عليهم، وقد خجلوا منه.

لم يكن يستنكف أن يأخذ الحكمة من أي أحد، ولا يقول أنا الشيخ فكيف لي أن آخذ بكلام من هم دوني، فأذكر أنه كان يحكي لي قصة مثل لامرأة ماكرة تعطي زوجها وأولاده طعامًا رديئًا، وتخفي في أسفل القدر طعامًا جيدًا شهيًا، فتبقيه لنفسها، وتقول: لا أريد سوى (حكاك القدر) وهو ما يتبقى في القدر بعد غرف الطعام، وغالبًا ما يكون ناشفًا أو محروقًا. فاكتشفها ابن لزوجها، وصار يأكل معها فقال لأبيه لما دعاه للأكل معهم: أنت ما تدري وولدك يدري أحلى المعاوش حكاك القدر... فذهبت مثلًا. فقلت له: ربما (أحلى المعايش) بالياء أصح وأفصح؛ فقال: صدقت: لقوله تعالى: ﴿مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠].

ومن تواضعه: رفضه أن يقبّل يده أو رأسه إلا لمن كان عليه حق القرابة، قال عبد الرحمٰن بن ناصر حفظه الله: حاولت مرارًا أن أقبّل يده فرفض ذلك، فطلبت منه أن يسمح لي بعد إدخالي السيارة للكراج وتوديعي إياه بشرط ألا أفعل ذلك أمام الناس، وقال: هذه السجدة الصغرى لا تكون إلا للوالدين.

وأحيانًا يُدْعَى لمناسبة فلا يرضى أن أوقف السيارة أمام المنصة التي في داخل البيت؛ بل يأمرني بإيقافها خارج السور، ثم نترجل وندخل على أقدامنا، ولا أذكر طيلة صحبتي له أنه سمح لي بالدخول بالسيارة مطلقًا، بل يرفض بشدة ويفتح الباب، ويقول مازحًا: حاسدنا على التمشي؟

وقال عبد الرحمٰن ابن عمي أيضًا: اتصل بي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: اليوم ليس عندي درس، وأريد أن أذهب لمحاضرة للشيخ فلان، فقد رأيت إعلانًا عنها، فلنذهب لها لنسلم على الشيخ ونستفيد، مع أن الشيخ الذي سيلقي المحاضرة ليس له مزية عن غيره في العلم، ولكن لما عُرف عن الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صدق وخشية وتواضع.

وقد حكى لي أحد أحفاد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان في الحرم المكي ينتظر أذان المغرب ليفطروا في رمضان، وقد فرشت سفرة الشيخ، لكن الشيخ جعل السفرة خلفه ليستقبل القبلة ويدعو، وفي جلسته هذه صارت أمامه سفرة أناس آخرين قد فرشوها للناس، وكانوا يوزعون العصير أو القهوة، فمن أخذ عصيرًا لا يُعطَى قهوة والعكس، فمر أحد أبناء صاحب السفرة، ووضع عند والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأس العصير، ثم مر آخر فأعطاه كأس القهوة، وهو لم يطلبها، ثم جاء شخص من هذه الأسرة وانتهر الشيخ، وقال: لِمَ تأخذ كأسين؟ فأعاد الشيخ له أحد الكأسين، وهو منشغل بالدعاء لا يقطعه سوى

سلام الناس عليه، ولما رأى صاحب السفرة كثرة من يسلم على والدي قال: من هذا؟ فقيل له: هذا الشيخ ابن جبرين، فهبَّ من مكانه وذهب للشيخ يستسمحه ويعتذر مما فعل أبناؤه، ولم يذهب إلا وقد أخذ موعدًا من الشيخ ليدعوه لبيته في الرياض، وبالفعل زاره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ودعا الشيخ هذا الرجل لبيته وأولم له.

ومن تواضعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه كان يصرح برأي طلابه في بعض المسائل؛ يقول أحد طلبته مرة في أحد دروسه: ذكر الشيخ معلومة مشتهرة عن الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، لكنها غير ثابتة عند التحقيق، فكتبتُ ورقة بذلك وأرسلتُها للشيخ، فقرأها أمام الحضور، وقال بكل تواضع: هكذا كتب الأخ، ونستغفر الله إن أخطأنا.

❀ ❀ ❀

الصمت:

كان الصمت يغلب على أبي رَحِمَهُ اللَّهُ مع نظره الدائم في كتبه، وكان لا يتذمر من صراخ أطفالنا إن اجتمعوا حوله، حتى إننا لا نعلم أنه موجود لصمته وسكوته، وإذا عرفنا نأتي لإخراجهم سريعًا.

وإن خاطبه بعضنا وليس له مزاج في الحديث فلا نستنكر أن يصمت ويستمر في القراءة ويدع هذا الشخص، خصوصًا إن كان كلامًا سخيفًا، وكنا أحيانًا نستأذنه للذهاب لمكان ما، فإن كان لا يريد ذهابنا فإنه يسكت ويدعنا بلا جواب.

في إحدى المرات كان يرافقه في الحج بعض نسائنا، فكُسر ظفر إحداهن وهي لا تزال محرمة، فقالت: إن ظفري هذا يؤلمني؛ فهل أقصّه وأنا محرمة؟

فسكت الشيخ عنها، ولما رأته مرة أخرى سألته فسكت وكأنه لم يسمع، حتى حلت إحرامها، وكأنه يعلّمها درسًا في الصبر.

❀ ❀ ❀

الغضب لدين الله:

لم يكن الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ يغضب إلا نادرًا، وغالبًا ما يغضب لله، فأذكر أنه نام أحد إخوتي عن الصلاة مع أن والدي أيقظه، ولما رجع من المسجد أخذ برأسه وشعره يجره إليه وهو يعاتبه على نومه، وقد استنكرت هذا الفعل من والدي الذي عرفته لطيف المعشر غالب وقته.

ويذكر لي إخوتي قديمًا أن أحدهم اشترى جهاز تلفاز وأخفاه في غرفته، وكان إخوتي وهم صغار يتسللون إلى هذه الغرفة، ويشاهدون المسلسلات (القليلة حينها)، ولما عرف بذلك والدي الشيخ عبد الله بن جبرين رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ التلفاز وألقاه من سلم البيت (الدرج) حتى تهشم.

وبالمناسبة تحكي لي إحدى أخواتي أنها قد اشترت بالخفية دمية لها وجه وعينان وكانت تلعب بها بعيدًا عن أعين والدي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكنها نسيتها في مكان فمر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ورآها؛ فأخذها وقطع رأسها ويديها ورجليها وتركها وقد ظن أنها تلفت، ولكنها من النوع الذي يمكن إعادة تركيبه فلما رأتها أختي أخذتها وركبتها وأخفتها جيدًا، فانظر كيف يبدأ بتغيير المنكر بيده ولو كان شيئًا عزيزًا على أطفاله.

وقد عرضت أمامه تلك الدمية التي تفتح عيونها وتغلقها وسئل عن حكمها فارتاع من شكلها وشدة مضاهاتها لخلق الله وقال: أعوذ بالله! ترمش!! فأفتى بحرمتها.

ولما سئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن بعض المبتدعة الذين يغلون في الدين ويسبون الصحابة وكانوا منتشرين في مدارسنا كيف نتعامل معهم؟ كان يقول بصوت غاضب: لا تتعاملوا معهم.

وقد سُئل مرة عن طالبات في مدرسة فقيرات، لكنهن من أهل البدع والتجني على الصحابة، هل يُعْطُوْن من الصدقة؟ فقال بغضب: كلا.

بل إنه مرة كان في الحج وكان في سيارته ومر جمع من المبتدعة، وقد رفعوا أصواتهم ببعض عقائدهم الباطلة، فطلب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يفتح نافذته فأطل عليهم، وبدأ بتفنيد أقوالهم والرد عليهم حتى خاف مرافقوه من بطش هؤلاء به.

❀ ❀ ❀

الأريحية:

كان مع انشـغاله ونهمه للعلم يبسـط لنـا وجهه، ويحب اجتماع إخوته وأخواته وأبنائه، فكان يسـعد كثيـرًا إذا زارته إحدى أخواته، ويصر عليها أن تنام عنـده، ويكرمها ثم يضع كتبه جانبًا، ويحكي معها عـن ذكرياتهما، وتأتي له بالقصص والأشعار ويشاركها ذلك.

وكان إذا اجتمع إخوته جعل يقـص لهم كثيرًا من الأحداث، ويؤرخها كلها، ولا ينسـى أي تاريخ فيعجبـون لتذكره التواريخ وأسـماء الأشـخاص والمدن والقرى، وكان غالبًا ما تأتيه حالة الأنس هذه في السفر، إن أعجبته الصحبة التي في السيارة، وكان الوقت مساء، لا مجال للقراءة، فيأخذ بالأحاديث والألغاز.

وكان يعجب سامعه لشدة ذكائه ونباهته؛ بل إن بعض مواقفه تذكرنا بالقاضي إياس، فأذكر أنه خرج مرة من المسجد ـ كما روى أحد أعمامي ـ فرأى فقيرًا مقعدًا قد رفع قدميه وهو يسأل الناس، فقال له الشيخ: أنت تستطيع أن تمشي... فارتبك ثم هرب... فقال عمي: كيف عرفت أنه يكذب؟ فقال الشيخ: رأيت قدميه متسختين ولو كان لم يمش بهما لما اتسختا!

وكان يمازح أطفالنا كثيرًا ويقبلهم، وكنت أصرخ وأنا صغيرة (لا تقبلني شـعرات شـاربك تؤذيني)، فيعاندني ويحك وجهه

بوجهي ويضحك، وكان يكنّي أطفالنا ويفتقد غائبهم، وكأنهم قطعة منه، وفي كل مرة يراهم يتذكر اسم كل طفل مع كثرتهم وتنوع عائلاتهم.

وأتذكر مرة أن إحدى حفيداته الصغيرات كان لها شعر طويل، ثم قصته لها والدتها، فلما رآها حز في نفسه ذهاب شعرها الطويل، فلم يُظهر لها ذلك، لكنه قال: أهلًا بعليّ! أنت عليّ. فقالت: كلا أنا فلانة، فقال: بل أنت ولد واسمك علي، فلم يعد يناديها بعد ذلك إلا بـ: علي.

وقد استمر طويلًا يسميها علي، ولم ينس مرة... حتى طال شعرها وتابت عن قصّه بشكل قريب من شكل الأولاد فكان درسًا قويًّا بالنسبة لها.

❀ ❀ ❀

أسفـــاره

كانت أســفاره غالبًا بالســيارة مع عائلته، ولم تكن تتعدى حدود المملكــة، فكانت عادته في كل ســنة الذهاب لمكة في رمضان، والإقامة بها نصف رمضــان أو أقل قليلًا، وكان هدف هذه الرحلة معروف وهو التفرغ للعبادة، وغالبًا ما تكون القافلة كبيرة، فلا ينســى أخواته الأرامل، ولا ينسى من تحت يديه من عمال وســائقين وخدم، فلا يحرم أحدًا من الذهاب لأخذ عمرة في رمضان، وعند الذهاب لمكة يكون وقتــه ضيقًا جدًّا؛ فقبل الفجر يكون الســحور، ثم صلاة الفجر في الحرم، والمكث به حتى شروق الشــمس، ثم يعود منهكًا بقدميه، وينام حتى قبيل الظهر فيقوم ليقرأ، وبعد الظهــر يجلس ليقرأ، ثم يذهب لصلاة العصر ولا يعود بعدها؛ بل يؤتى له بفطور متواضع، وتُمَدّ سفرة طويلة ويصــف التمر، وتوزع القهوة والعصيــر، ويجلس هناك حتى يصلي التراويح، ثم يعود ليتعشى ويرتاح قليلًا، ثم يذهب للقراءة والصلاة قبل صلاة القيام، ثم يعود ويتسحر، ثم إذا أذن

الفجر يأمر رفاقه بالذهاب للصلاة، وقد يتكاسلون ولا يستطيعون مجاراته في كل ذلك.

وأحيانًا يكون السكن بعيدًا، فيأتي بالحافلة للحرم مع جموع الناس، ويجلس للقراءة والصـلاة والذكر حتى القيام، ولا يذهب للسكن سوى مرة واحدة.

أما في غير رمضان فله أيضًا سفر معتاد في كل إجازة صيفية يذهب أسبوعًا إلى مكة، ويقضي أسبوعًا آخر في جدة، وثالثًا في الطائف، ورابعًا فـي أبها، ثم يعود للرياض أسـبوعًا، ثم يذهب للمنطقة الشرقية أسبوعًا، وقد يتغير هذا الجدول أحيانًا.

والغريب أنه في سفره للمنطقة الجنوبية كان يمر بقرى صغيرة في طريقه لأبها، ويقف في كل منها لأجل موعد وعدهم إياه قبل عدة أشهر؛ فيعطيهم درسًا أو يحضر عندهم مأدبة، ولا يحتقرهم أو يقلل من أهمية هذا العمل، وربما حصلت له مشقة في الطريق بسبب ذلك، ولا يصل إلا بعد عدة أيام من السير.

وكان الناس هناك يتسابقون لإكرام الشيخ الذي شرّف بلدتهم، حتى إنهم كثيرًا ما يبالغون في موائدهم، وأذكر أنني حضرت إحدى الموائد لطعام الإفطار، فتفاجأت بالذبائح، وكأننا في يوم عيد!!

ولما خرجنا أخبرنـا أخي أن أبي غضب لمـا رأى الذبائح، وقال: الإفطار لا يكون هكذا، وسـتُذبح لنا ذبائح في قرية أخرى

بعد ساعتين، فخرج من غرفة الطعام، ولم يذق شيئًا، فحاول إخوتي ثنيه عن قراره فأبى.

ويذكر إخوتي أنه كثيرًا ما كانت تُعرض عليه بنات شيوخ القبائل، وكان يرفض ذلك الزواج، ويقول: هؤلاء الشباب الذين معي زوّجوهم.

وكان له في كل أسبوعين محاضرة خارج الرياض في مدينتنا القويعية، وكان يذهب لغيرها من المدن القريبة كثيرًا، وغالبًا ما يكون الذهاب في نهاية الأسبوع، وقد يسافر لشمال المملكة، وسفره يكون بالطائرة، ويُستقبَل في كل مكان يذهب له بالحفاوة والترحيب.

وأحيانًا تُستأجر له الفيلات الفاخرة والغرف الفخمة، ولا يبالي بما سكن؛ حيث إنه لا يقيم فيه إلا للنوم؛ بل هو من مكان إلى مكان، ومن درس إلى زيارة، المهم عنده ماذا يقدّم وكم يقدم.

في إحدى المرات كنا في نزهة برية معه، وكان الذي يقود السيارة أحد إخوتي، وقد طال المشوار، ولم نصل للمكان الذي يريده أخي، فقال أبي رَحِمَهُ اللَّهُ: يجب عليك أن تقف فقد ضاع وقتنا؛ فقال أخي: انتظر قليلًا سنصل بإذن الله.

ثم مشينا طويلًا فقال والدي: أمامك عشر دقائق إن وقفت بها وإلا فسأنزل؛ فاضطر أخي للوقوف؛ لأنه يعرف جدية أبي جزاه الله الجنة.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحب الأسـفار، ولا يمل منها، لأنه يحس أنه يبذل علمه للناس، وكان أصحاب هذه المدن يحجزون مواعيد يسجّلها الوالد في دفتر خاص، أو يسجلها أخي سـليمان، وقد تمتد هذه المواعيد قريبًا من السنة، وكنا إذا رجع من سفر نقول له: استرح من عناء السفر. فيقول: السـفر الآن لا عناء به؛ نجلس في كرسي مريح في سـيارة مكيفة حتى نصل، السـفر المتعب قديمًا حيث يركب الناس الدواب، أو يسافرون مشيًا على الأقدام.

وقد عُرف عنه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يبالي بالسـفر مهما بعد وشق عليه الطريق ما دام في سبيل الله، يقول أحد طلابه من الدعاة: (فوجئت عندما زرت قريـة نائية في جنـوب المملكة والمسـافة بعيدة، والطريق وعر، حتى ظننت أني أول من زارها، فلما قلّبت سـجل الزيارات في مركز الدعوة وجدته قد حضر في أول صفحة).

ويقول أحد الدعاة في الجنوب: (كان لدينا مخيم في غرب بيشة في وادي ترج، وعندمـا طلبته يلقي محاضرة هنـاك قال له بعض الإخوان: إنه يبعد عن الإسفلت قرابة ستين كيلو... قال: ولو كان).

طبعًا أنا أتحدث عن أسـفاره التي عاصرتها، وإلا فقد كانت له رحلات في صباه من وإلى الرين والقويعية وغيرها لطلب العلم وإلى الرياض وإلى الشمال لنشر العلم وللدعوة... رحمه الله رحمة واسعة.

❀ ❀ ❀

في المستشفى

كان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يشكو مما يصيبه أبدًا، وكانت الأمراض تنهشه من الداخل، ولم يكن يشكو شـــيئًا، وحدث ذات مرة أن أتعبه اثنان من أضراسه، فمر بعد إحدى محاضراته على مستوصف أســـنان، فطلب من الســـائق الوقوف، فنزل وطلب خلع هذين الضرســـين؛ لأنه لا وقت لديه لعلاجهما، أو لم يكن يعلم أن هناك حلولًا أخرى غير الخلـــع، فخلعوهما. ولما علم إخواني بذلك رتبوا مع أطباء أكفاء في مستشفى جيد، وكشفوا وعالجوا جميع أسنانه.

وكان يعاني من مرض الســـكري، ولم يكن يشكو من أي أعراضه التي اكتشفتها زوجته، فقد كانت تقول لإخواني: انتبهوا له فأنا ألاحظ أنه إذا اســـتيقظ يترنح، ويكاد يصطدم بالباب، وكلما حللوا خرج التحليل سليمًا مع أنه مُصَاب به، لكن أثناء أخذ كل تحليل يكون السكر مســـتقرًا فلم يلاحظوا وجوده إلا بعد سنوات.

دخل المستشفى مرة لمشكلة بسيطة في قلبه فخفنا كثيرًا عليه رَحِمَهُ اللَّهُ، ولما زرناه ورأى لهفتنا عليه قام من السرير وجلس ثانية، وهو يقول: ها أنا طيب معافى، وهو يقوم ويجلس؛ ليثبت لنا أنه بخير.

ولما مرض مرضه الأخير أُدخل المستشفى، وكان متعبًا مرهقًا، فلما وضعوا الأوكسجين وأعطوه بعض المهدئات، واكتشفوا في شرايينه مشكلات تحتاج لعملية سريعة، لكنه عندما عادت له أنفاسه قال لإخواني: الآن أنا بخير... أخرجوني، فقالوا له: ليس بأيدينا شيء الآن.

تقرر إجراء العملية في يوم السبت.

ولا تسل عن حالنا ذلك اليوم... كلنا يعلم أنه سيشق صدر والدنا الغالي، ويفتح قفصه الصدري، ويشتغل الأطباء في قلبه العامر بالعلم والخير، كنا كمن يخاف على ماسة غالية من الخدوش، وأُخبر أنها ستقص نصفين لتجود وتزهو!!

أجبنا ورضينا، وليس لنا غير الرضا، وكلنا يتمنى أن الداء بقلبه، وليس بقلب والدنا الحبيب.

قالوا لنا: ستُجرى له الجراحة في الصباح، وستستغرق وقتًا طويلًا، فسهرنا طول الليل نبكي، وندعو حتى طلع الصبح، واقترب الموعد وحانت الساعة التي نخشاها.

ترى هل أخرج الطبيب مشرطه؟

ترى هل سن شفرته؟ ما أجرأك أيها الطبيب؟

كيف تشق الصدر المخبت المنيب؟ ولا نزكيه على الله.

كيف تشق صدرًا حوى درر العلم وألمّ بكتاب الله؟!

وجلسنا على هذه الحال، وفي كل دقيقة نتصل بإخوتي الذين تجمعوا خلف حجرة العمليات... ولا جديد فلا زال الشيخ في غرفة العمليات.

طال انتظارنا... فغفت عيني لحظات وسرعان ما رأيت والدي رَحِمَهُ اللَّهُ في عربة يدفعه أخي عبدالرحمٰن، وكأنه أُخرج من غرفة العمليات وهو ذاهب به لمحاضرة يلقيها.

فقلت: كلا إنه قريب عهد بالألم... فرد أخي: خجلنا من الشخص الذي طلب المحاضرة!

وبعد برهة يسيرة اتصل بي أخي سليمان في حدود الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وصوته يتهدج ويحاول إخفاء ذلك، فقال: أبشرك بخروج والدي من غرفة العمليات.

فشكرته وفرحت بهذا الخبر، وسألته عن حاله. فقال: الطبيب يقول: كل شيء على ما يرام.

فحمدت الله تعالى، وسألته أن يديم النعمة.

وبعد لحظات اتصلت أختـــي بي وقد بُـــحَّ صوتها من كثرة البكاء، وقالت: هل اتصل بك من يخبـــرك بحال والدنا؟ فقلت: نعم... فتباشرنا خيرًا، وسألنا الله تعالى سرعة شفائه.

وقد كتب عمي سعود قصيدة طويلة لما كان والدي رَحِمَهُ اللَّهُ في غرفة العمليات وهذا مقطع منها:

جســـم مـــن ذا على الســـرير حملتم وبدأتم لدفعه تركضونا
وبأيديكـــم طفقتـــم عجالى بين أيـــدي جراحه تضجعونا
ولمن فـــي عروقه يـــا أطباء تراكـــم مخـــدرًا تحقنونـــا
ولمن جيء بالمشـــارط سنت ومقصاتكـــم لمـــن تقبضونا؟
يا أطبـــاء جلد من قد جرحتم لحم من ذلك الذي تذبحونا؟
ولأضلاع من تُراكـــم فصلتم وطفقتم مـــا بينهـــا تفرجونا
جوف من ذاك تدخلون رويدًا ولأقصـــى أحشـــائه تصلونا؟
قلب من ذاك تمســـكون برفق جامدًا في أيديكـــم تحملونا
يا لهـــول القلـــوب إن الذي من قلبه تقطعونـــا لهو أخونا
بـــل أبونا وقـــرة العيـــن منا ورفيـــعُ القدر الـــذي تعرفونا
شـــيخنا العالـــم الجليل وها قد دفق العلـــم للورى ينهلونا
كل وخز في جســـمه طعنات فـــي فـــؤادي وأمتـــي تنزلونا
فارفقوا بالشـــيخ الجليل فإن الأمـــة الآن كلهـــم قلقونـــا

طال مكـــث الشـــيخ الجليل لديكم يا أطبا متى له تأذنونا؟
إن أحبابـــه إليـــه عطـــاش وعلى حـــر الجمـــر ينتظرونا

إلى آخر القصيدة وهي طويلة جدًا.

زرناه بعد العملية بفترة وجيزة ورأينا صحته جيدة ففرحنا، إلا أنه كان يتجلد ويحاول إظهار العافية كعادته.

ولحبنا له ولهفتنـــا عليه أرادت كل واحدة منـــا نحن البنات والحفيـــدات أن تزوره يوميًـــا، أو يومًا بعد يـــوم حتى يخرج من المستشفى، لكن إخوتي رفضوا، وقالوا: لا تأتين حتى نأذن لكنّ، فكان ذلك يضايقنا نحن بناته حيث إننا أولى بالزيارة له من بعض الناس من الرجـــال وكانوا يقولون: إن أردتـــن مصلحته فلا تأتين يخافون من العدوى.

وقد علمنا أنـــه تعب قليلًا لكثـــرة الزوار، فأرســـلت لأخي عبدالرحمٰن رسالة بالجوال أعاتبه، وأقول: تمنعنا وتفتح المجال لغيرنا، ها قد تعب الوالد من كثرة الناس، فأرسل لي أبياتًا شفت ما بقلبي يقول فيها:

لا تكثـــري هـــذا العتاب كفى ففـــي قلبي الجواب
أنـــا لـــم أزل أحنـــو لـــه لا أدّعـــي كل الصـــواب
أفديه لـــو يحتـــاج قلبي جُدت بالقلـــب المصاب

النفس تمرض مثلما مرض الفؤاد وقد تصاب
وأحس أن شفاءها بالناس لو قل الخطاب
النفس تأنس بالقريب وبالحبيب وبالصحاب
وتمل من إفرادها في غرفة أو صد باب
عذرًا فليس جميع من يأتي يتاح له الجواب
ما كل وقت نفتح الأبـ ـواب أو نرخي الحجاب
لكنها نسمات إقبال يجود بها السحاب
نختار من يرنو لهم قلب الحبيب بلا ارتياب
لك إخوة قد جربوا سير المفاوز والشعاب
درسوا بمدرسة الحياة وألّفوا فيها كتاب
فثقي بأنا عنده نحـ ـميه مثل أسود غاب
نحميه من لفح الهواء من الغبار من التراب
أنا لن ألوم فؤادك الـ ـحاني ولو كثر العتاب
لكنني أحكي الحقيقة علّها تطفي اللهاب
وقد استشرت أخي وعضـ ـدي في القضية فاستجاب

بعد إجراء العملية بأسبوع تقريبًا تعبت رئته، وصار التنفس صعبًا وعسيرًا، وفي بداية تعبه كان يقوم لكل صلاة، ويجر خلفه الأجهزة ليتوضأ ويصلي واقفًا، لكن الطبيب نهاه فلم يقتنع؛ بل كان يقول: أرى في نفسي القدرة، والقيام من أركان الصلاة.

حتى قال له: أنـــا الطبيب، وأقول: إن الوضـــوء خطر عليك، فتيمم وصلّ جالسًا.

وقد زرناه مرة قبل وضع جهاز التنفس عليه، وكان يغفو أثناء وقوفنا بجانبه من شدة التعب، وإذا كلمناه فتح عينه بصعوبة ورد علينا، وكانت يده ممـــدودة فقالت إحدانا: لمـــاذا يدك هكذا هل تؤلمك؟ فقال: أســـتطيع أن أقـــول بها هكـــذا (وحركها للأعلى وللأسفل) أو هكذا... أنا بخير. ومن الغد جاءنا خبر تعبه الشديد ووضع جهاز التنفس الصناعي وهو أنبـــوب غليظ يدخل في فم المريض ويجبره على رفع رأســـه بشـــدة، وفتح فمه باســـتمرار ويضايقه كثيرًا، وكان يشير إلى هذه الأنابيب وكأنه يقول: أخرجوها من حلقي؛ حيث لا يســـتطيع معها قيامًا ولا حركة، وكأنه يقول: لا أحتاج لها أنا بخير، ثم بعدها بأســـبوعين نزعوا هذا الأنبوب، وفتحوا في حلقه فتحة أدخلوا منها جهاز التنفس، وكان الأنبوب أصغر وأخف، ولم يزل معه حتى توفاه الله.

وبعد مرور أكثر من الشهر وهو لم تتحسن حالته ولم يتغير وضعه الصحي جاء أحد الأطباء مرة لأخي عبدالرحمٰن واسمه مصلح العنزي، وقال له: إن وضع الوالد مطمئن ولا خوف عليه، وهذه الحالة معروفـــة وعليك بالتوكل علـــى الله وجلس يهدئه ويســـكّنه، فلما ذهب أثار فـــي نفس أخـــي عبدالرحمٰن بعض المشاعر فكتب:

قل للطبيب إذا المسالك أُغلقت ... دون الدواء وحرت ماذا تصنع
وتثاقلت منـــك الخطى مترددًا ... بيـــن الحلول وشـــرها تتوقع
ورسمت آلاف الخطوط وكلها ... لم تجد نفعًا لم تجد ما ينفع
ونظرت للشـــيخ الممدد باكيًا ... الدمع يذرف والفـــؤاد يقطع
وحزنت بل أطرقت رأسًا يائسًا ... وجعلت تشرح لي بصوت يفزع
إني طبيبـــي الله جـــل جلاله ... منه الشـــفاء إليه دومًـــا أفزع
إني طبيبي الله ليس يضيرني ... أحد إذا مولاي صوتي يسمع
ســـأظل أطلبـــه وأطـــرق بابه ... سأظل أبكي علّ قلبي يخشع
يا رب هذا والدي عجز الدوا ... ودواك أقرب يـــا قدير وأنجع
يـــا ربنا علم الأطبـــا لم يجد ... حلًا وعلمك يا إلهي أوســـع
خمسون يومًا لم تفد من طِبِّهم ... والله بالتكويـــن منهم أســـرع
إنا لنلجـــأ قبـــل أن نأتي لهم ... دومًا إليك وبعدُ أنت المفزع
بذلوا من الأسباب ما يدرونه ... ومسبب الأســـباب دومًا يبدع
بهـــر العقول بلطفـــه وبعطفه ... فضلٌ يعم الخلق بابٌ مشرعُ
يا ربنا أنت الرحيم ولم تزل ... تهمي من الرحمات خيرًا ينفعُ
أنزل على الشيخ المريض من الشفا ... بردًا يريح أراه طال المضجع
لا لست أسخط من قضائك لو قسا ... أدري بأنـــك بالمصائب ترفعُ
لكن قلبـــي لا يطيـــق توجعًا ... من والدي فدموع عيني تدمعُ
فشفاك أطلب كي يعافى والدي ... مـــن دائه والمســـلمون الوُجَّعُ

هذا الدعاء وأنت أحكم بالقضا ... الدمع يـذرف والأيادي ترفع
والقلب يحزن لا نقول سوى الذي ... يرضيك فاحكم ما تشاء وتصنعُ

جاءته بعد ذلـك أيام تعب خلالهـا كثيرًا، وكانـوا ينزعون الأنابيب بشدة ولا يئن ولا يتألم، وإن غرسـوا في يديه عشرات الإبر، فاستغرب الممرضون شدة صبره وتجلده. فقال أحدهم وكان كافرًا: إن كنت أريد الإسلام فسأسلم لأجل هذا الشيخ، إنه مختلف عن المرضى الذين يتألمون ويئنون وينظرون لنا نظرة استرحام، أما هذا المريض فلا يهتم بنا ولا يستعطفنا وكأنه متعلق بمن هو أقوى منا، ولم أكن أعلم أنه شـخصية إسلامية كبيرة حتى زاره الملك، فهو ليس له حـراس ولا خدم إلا أبناؤه ومحبـوه الذين يعملون بلا مقابل، ويستمرون عنده ليل نهار... أ.هـ.

ولما طال بأبي رَحِمَهُ اللَّهُ المرض كتب حفيده الأسـتاذ عبد الله العجلان ـ وهو شاعر قدير ـ أبياتًا يقول فيها:

اهتز قبـرك يا خوفو من الألم ... لدمعة من تقي صـاح بالهرم
ومسلم الصين دك السور مأتمه ... مدافع الدمع هدت بنية العجم
لما أصاب أميـرًا في ممالكه ... ممالك العلم تشكو غيبة العلم
تقول أين شرابي إن ظمئت ضحى ... وأين أكلي إذا ما جعت في الظلم
السقم زار المعالي في مساكنها ... فأكرمته بطيب النفس والشيم
لما أتى الصـدر أعمته تلاوته ... أصمه غوصـه في نون والقلم

يجيئه من يحيك الضاد منطلقًا فيرجعن بشــؤم الصم والبكم
أرى كفوف الأطبا في ارتعاشتها زلزال أرض به شيء من الحمم
أدمت مشارطهم خوفًا أياديهم لأنهم يخلعــون النعل للحرم
شقوا الفؤاد وتاهوا في عجائبه سحر العجائب ألهاهم عن السقم
أعمى الأطباء نور القلب فاقتبسوا من نوره ما يضيء الدرب للقدم
وعندما سحبوا شريانه سحبوا شريان كل محب في الفؤاد رمي
أرى الشرايين تبغي قلبه نزلًا لكي تحل بقرب العلم والكرم
إن ضاقت الرئة البيضاء من نفس تنفست من نسيم الآي والحكم
يعلّم الناس حتى وهْو في نصب فوجهه للأطبا الدرس في القيم
أهنئ السقم أن قد حل في جسد مطهر ليتني في منزل الســقم
صحّوا برؤيته المرضى وطاب لهم جلوسهم في محل الحزن والندم
والســقم في مثله عفو وعافية والسقم في غيره يودي إلى العدم
والشعر في مثله وزن به ذهب والشعر في غيره حشو من الكلم
إذا مرضت وصار الناس في قلق فاعلم بأنك طود شامخ القمم

بعد ذلك طال المكث في المستشفى، وتغلغلت الأسقام في جســده الطاهر، ولما تأزمت حالته منعنا إخوتي من زيارته لمدة شهرين أملًا في تحسنه، ولما استمر المرض سمحوا لنا بزيارته، وأذكر أنــي لما رأيته بعد تدهــور حالته فُجعــت وبكيت يومين كاملين، فلم أتوقع أن حالته بهذا الســوء، فرأســه مرفوع وعيناه

شاخصتان للسقف ولحيته مضفرة ومربوطة، ولما كلمه أخي وقال: هؤلاء بناتك أغمض عينيه موافقًا، ثم لما كلمته ودعوت له ذرفت عينه، فمسحها أخي بمنديل، وخرجت مسرعة من الغرفة، وأنا لا أكاد أرى طريقي.

ولم أعد أرغب في زيارته شفقةً من رؤيته على حاله تلك، ثم بعدها بيومين سافروا به نحو أوروبا، ورافقه إخوتي الثلاثة واثنان من أعمامي سعد وسعود، وفهد ابن عمي محمد.

في البداية أظهر الأطباء مقدارًا من الاهتمام، وقالوا: لقد تحسن وضعه والأدوية التي أُعطيت في الرياض ليست مناسبة، ولقد عرفنا علته وحددنا المرض، وكان عندهم نوع من التعالي والفخر فيظنون أنهم أفضل الأطباء، لكن النتيجة متقاربة ولا يوجد هناك كبير فرق بين طريقة المستشفيين.

وكان إخوتي يتصلون بنا اتصالًا مرئيًا في كل أسبوع يعطوننا التفصيلات ونناقشهم في وضع الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ، هذا غير الاتصالات بالهاتف التي تجريها كل واحدة منا في بيتها، فأحيانًا لا ننتظر نهاية الأسبوع.

وكانوا هناك مقسمين مناوبتهم عنده رَحِمَهُ اللَّهُ ويقضون وقتهم عنده بالقراءة وبالقرآن، وكانت سجادة الصلاة في غرفته يصلون عنده، وفي المساء يقرؤون عليه سورة البقرة في كل ليلة، فكان

الأطباء والممرضون يستنكرون هذا الفعل منهم، ويقولون: ألم تملوا من مرافقة هذا الشيخ الكبير طوال الأيام والليالي؟ ولا يعلمون أن آلافًا من المسلمين يتمنون مكانهم هذا، فيقارنون حالنا بحالهم؛ فهم تقريبًا يتخلون عن كبار السن ولا يهتمون بهم؛ بل إن المريض عندهم يدخل المستشفى ويخرج ولا يزوره أحد البتة.

قال فهد ابن عمي محمد: كنت أقوم بالمناوبة عند عمي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا وأجلس يومًا، فالوقت الذي أقضيه عنده ممتع ويمر بسرعة مع أنه ست عشرة ساعة، ولا أرغب في الذهاب للبيت، فأفرح بالليالي التي أداوم فيها عند عمي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ولا أشعر بالوقت، ففي إحدى المرات لم يكن عندي مرافقة للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وكنت مهمومًا ذلك اليوم ومكتئبًا، ولا أعرف كيف أقضي وقتي، فجلست بالبيت فزاد الهم، وخرجت لأتنزه في الطبيعة الجميلة وزاد الهمّ، فكدت أن آخذ دفتري وأذهب لعمي مع أن الدور ليس بدوري، لكن لما تجلبه الجلسة مع عمي من أُنسٍ وهو في حال مرضه.

وَصَلَتْ لمرافقي والدي وهم هناك رسالة من (ضحى) وهي امرأة من بلادنا، أرسلت رسالة لأحد الكُتاب المشهورين في الشبكات الإسلامية في الإنترنت تقول في رسالتها: (السلام عليكم أستاذي.... الذي أثّر كثيرًا في شخصيتي منذ سنين، لي طلب أرجوك ثم أرجوك أن تحققه هل بالإمكان إرسال هذه الرسالة لأحد مرافقي الشيخ ابن جبرين في رحلة العلاج؟

أنا ممن يحمل في قلبه للشـــيخ محبة عظيمة، ولا أعتبره إلا والدي، لي أمنية تتردد في نفسي منذ ســـنين هي أن تقبّلوا رأس الشيخ، وقولوا له: تسلم عليك ابنتك ضحى، ابنتك التي لم ترك، لكنك في قلبي يا والدي، أدعو لك في كل حين، ولن تقر أعيننا إلا برؤيتك بصحة وعافية عائدًا لبـــلاد التوحيد عاجلًا غير آجل، وسأعيش على هذا الأمل وما ذلك على الله بعزيز).

بالطبع كنا ونحن بناته وأبناءه نُنهَى أن نمسه بأيدينا خوفًا عليه من العدوى طوال مدة مرضه؛ بل إنهم في إحدى الفترات صاروا يطالبوننا بلباس معين يغطّي سائر الجسد، فكان تقبيل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ غاية بعيدة المنال. لكن ضحى نكأت برسالتها تلك جراحنا وهي لا تعلم.

فرد عليها أخي سليمان برد بليغ نثري يقول فيه: (ثلاثة أشهر يا أبي مرت ولم أقبّل رأســـك الطاهر، ثلاثة أشهر مرت ولم أنعم بحديثك العذب، ثلاثة أشهر مرت لم أجرؤ على القرب منك، لم يكن جفاء بقدر ما هو رحمة، لم يكن صدًا بقدر ما هو شفقة، لكن ضحى أشعلت فيّ الشوق، وأنا لم أفارقك لحظة، شكرًا ضحى... فقد كانت كلماتك النقية دافعًا لي؛ فلقد قبلت علامة السجود في جبينه، ولقد قبلت لحيته التي طالما خللها بالماء الطهور، وقبلت يده الباذلة، كما قبلت قدمه الســـاعية في الخير، أوصلت سلامك يا ضحى... ولئن كان لا يعرفك فقد صدقته مشاعرك، وإن كنت لم

تريه فيكفيه أن وقع في قلبك تقديره، أقر الله عينك وأبلغك مناك. لا تنسوه ومرضى المسلمين من الدعاء).

أما عبد الرحمٰن فقد كتب أبياتًا يقول فيها:

يا ضحى بلغوه منك السلاما ... ثم زادوه قبلة واحترامًا
قبلة للجبين عنك وقالوا: من ... ضحى بُوركت تحب الإماما
تفتديه بقلبها تتمنى أن ... يعافى وأن يطيق الكلاما
أن يرد السلام دون وسيط ... أن ينادي إذا أراد مرامًا
ها أنا ذا أخي وعمي وصهري ... لم نطق أن نلامس الأقداما
نتمنى أن نلثم الكف منه ... نتمنى بأن نمس السُّلاما
يا ضحى كنتِ كالدليل لقوم ... منع الخوف منهم إقدامًا
مزج الحب بالمهابة مزجًا ... يا ضحى هل نلام لا لن نلاما
يا ضحى واحد وتسعون يومًا ... لا تقولي: هل تذكر الأياما
نحن كالظل حوله كل وقت ... نحن عند الإمام مثل اليتامى
نظرة منه تكسر القلب مني ... ليتني في مكانه أعوامًا
وهو يغدو ويأخذ الناس منه ... علمه عنه أحمل الأسقاما
رئتي دونكم إذا كان يشفى ... لست أخشى الجروح والآلاما
مزقوني وكلما احتاج مني ... فخذوه وأحكموا إحكامًا
يا أبي دمعة على الخد سالت ... طعنتني بل حولتني ركامًا

إلى آخر ما كتب.

والله إني لأعلم أن في بناتنا الكثيرات مثل ضحى هذه، حفظها الله وثبتها.

يقول إخوتي وأعمامي الذين رافقوه: كنا ندخل عليه غرفته باللباس الإفرنجي فنرى انزعاجه من هيئتنا، حيث إنه جاءته أيام يقظة وتحسن من ناحية الوعي، ولم يكن ينقصه إلا الكلام.

ثم قررنا أن نرتدي أمامه الثوب العربي حتى ترتاح نفسيته، وبالفعل صاروا يغيرون ملابسهم قبل الدخول عليه، وإذا خرجوا من عنده سارعوا بتبديلها حتى لا يستنكرهم العجم، وكان في ذلك مشقة عليهم.

وقد روى إخوتي لنا: أنه كانت هناك امرأة عجوز ألمانية مسؤولة عن العلاج بالمشاعر أو لتحسين نفسيات المرضى، وكانت تقترب من المريض وتربت عليه وتطمئنه بكلامها وتحسسه بالأمان... وقد فعلتها مرة مع والدي رَحِمَهُ اللَّهُ ولاحظت اشمئزازه، ولما علم بها إخوتي أخبروها بأن هذا عالم مسلم وتقي لا يجيز له دينه ذلك.

أما نحن البنات فكانت أجسادنا في الرياض، وقلوبنا مع والدنا رَحِمَهُ اللَّهُ، نبتهل لله في كل ليلة، وإذا اجتمعنا نتباكى ونتشاكى ولا شكوى لغير الله، لكننا نسلّي أنفسنا ونحتسب الأجر عند الله على هذه البلية التي قلبت حياتنا.

وقد تأملت في حالنا نحن أحباب الشيخ وأهله وأقاربه والمحبين من المسلمين، ونظرت كيف تغيرت حياتنا بعد السقم الذي ابتُلي به حبيبنا وشيخنا، وكيف أن القلوب رقّت وصار للسجود طعمًا فقلت:

أحبة شيخنا مدوا الأيادي ... لعل دعاءكم يشفي القلوبا
لعل الله يرفع عن صدور ... غشاها الران تبغي أن تتوبا
فتأخير الإجابة إن دعونا ... لخير فاحذروا اليوم الذنوبا
فهيا نترك الآثام عنا ... فلا نغتب ولا نفشي العيوبا
ونبكي في الصلاة إذا سجدنا ... نطيل سجودنا ندعو المجيبا
فمنذ سنين لم تخشع وتخضع ... ألا فادعوه شبانًا وشيبًا
أتى بمصيبة كبرى لندعو ... ويذهب كل سوء والكروبا

ثم رجع والدنا وشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ لبلادنا بعد خمسة وثلاثين يومًا كما ذهب، حيث لم يجدوا زيادة ولا مزية في العلاج. كما حصلت لهم بعض الظروف، وأصرت عليهم السفارة هناك ليغادروا، خصوصًا أن مرافقيه هناك عرفوا في وجهه كراهة السفر للخارج، وقد كان هذا رأيه قبل مرضه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفتح لنا باب الزيارة له بعد عودته من أوروبا، فصرنا نأتي لنرقيه، ونتأمل حالته المؤلمة، وإذا اجتمعنا بإخوتي طمأنونا، وقالوا: هو في تحسن ولكن بطيء، وحالته مستقرة، وليست خطرة،

فنسعد بكلامهم ويحدونا الأمل ونبشر الناس، وإذا رأيناه رأينا حالًا لا تسر؛ جسدٌ ما بقي فيه عضو إلا يشتكي من بلية؛ جلد به كدمات وما بقي فيه شبر إلا به أثر أنبوب أو إبرة.

وقد فتحوا في جسده عدة فتحات، واحدة في حلقه لوضع أنبوب التنفس، والأخرى في رقبته لوضع قسطرة غسيل الكلى، والثالثة في بطنه لإدخال الغذاء، والرابعة في أسفل بطنه لوضع قسطرة الإخراج، وغيرها، أضف لذلك فتحات في يديه لإدخال المغذي ولأخذ التحاليل، وقد تشققت أصابع يديه لكثرة ما يأخذون من تحاليل للسكري، وكل هذه الفتحات تلتهب ثم يضطرون لإغلاقها وفتح أخرى بديلة، وكم كان يعاني من ذلك ويتجرع الألم، أسأل الله له أن يجد أجره مضاعفًا، ويجمعنا به في الفردوس الأعلى.

وقد تساقط شعر رأسه لقلة الغذاء، مع أن شعره كان كثيفًا جميلًا، وقد تورم جسده كله، ولم يعد يقدر على إغلاق يده، إضافة للالتهابات التي في ظهره لطول مكثه في السرير، أسأل الله تعالى بمنه وجوده وكرمه أن يجعله الآن متنعمًا متلذذًا في جنات النعيم ووالدتي ووالديهم وأحبابنا أجمعين.

وكنا قبل مرضه نزوره كل يوم أربعاء، وأما بعد تعبه فكنا حين نجيء لبيته نرى آثاره فيه فنحزن لفقد نور البيت، وأذكر أنني

دخلت البيت لما كان أبي في المستشفى فوجدته خاويًا على عروشه فكتبت أبياتًا، وأعتذر لكل صاحب ذوق شعري عن ركاكتها وأسلوبها، لكنها أبت إلا الخروج موزونة هكذا:

قد كان يوم الأربعاء محببًا ... نغدو إلى بيت الحبيب فنفرح
فإذا وقفنا عند باب مشرع ... نجد الجموع تزاحموا لا يبرحوا
وتكدست بالباب سياراتهم ... فإذا وقفنا لا نجد من يفسح
قد أقبلوا من كل حدب مبعد ... وأتوا إلى بيت الإمام ليفلحوا
يقضون حاجات لهم ومسائل ... فالكل للحاجات دومًا صرحوا
وإذا دخلت بوسط دار حبيبنا ... تجد الموائد والذبائح تُذبح
في كل أسبوع تُمد موائد ... الأضياف والأقراب بل والسيّح
وإذا أتيت الدار في وقت الضحى ... تجد الإمام لِكُتْبِه يتصفح
ويقلب الشيخ الوقور مصنّفًا ... ولآخر يتلو له ويصحّح
وإذا دخلت عليه قام مسلّمًا ... ويهشّ ثم يبشّ ثم يصافح
أما بهذا اليوم بيت قد خوى ... إلا من الأحزان فيه تراوح
ودخلت في وسط الفنا فرأيتها ... سيارة في نشر علمك تسرح
قمم السحاب بعزها وبعزمها ... كم قد طوت أرضا كخيل تضبح
كانت إلى أرض الحجاز طموحة ... ومضت إلى أرض الجنوب تجنح
كم غدوة نحو الشمال غدوتها ... وإلى الخليج وبحره تتروح
قد كان فارسها أبي والهفتا ... هذي هي الأحزان نار تلفح

ورأيت كتبًا للحبيب تبعثرت فيها الغبار فأين من سيمسح
قد كنت ياكتبًا لعلم قد حوت محظية في حضنه لا تبرح
رباه قد نهش الفراق قلوبنا فاحفظ أبي فكبودنا تتقرح
واجعل علاج أبي بوحي منزل خيرًا وعافية فأنت المربح
يا ربنا أرجع أبي متعافيًا يمشي على قدميه حتى نفرح
وتقر فيه عيوننا وعيون من يدعون في الليل البهيم ويلححوا

كنا في زيارة له في آخر أيامه، وصادفنا أحد الأطباء المتابعين لحالته في غيبة من إخوتي الذكور، فسألناه كيف وضع الشيخ الآن؟

فقال: أنا مأخوذ عليّ عهود من أبناء الشيخ ألا أعطي أحدًا معلومات عما به. فقلنا له: ولكن من حقنا أن نعرف، فنحن بناته كما هم أبناؤه، فقال لنا: إن وضعه الإدراكي متحسن هذين اليومين، ولكن عنده مشكلات: التهابات الفتحات التي تدخل بها الأنابيب، وكذا فإنه يعاني من اصفرار لمشكلة في كبده، لكنها ليست شديدة. ونحن مستمرون في غسيل الكلى، ولعلكن لاحظتن كيف خفّ التورم، وأما التليف الذي بالرئة فقد وضعنا له جهاز التنفس كحلّ... فلما قال هذه الكلمة كادت إحدانا أن يُغشى عليها، فقالت بعد أن ذهب الطبيب: التليف هو تلف الرئة، وهو مرض مميت... فقلنا: اسكتي حتى نخرج من هنا، ونبحث عن معنى التليف.

فخرجنا ولما وصلت لبيتي بحثت طويلًا في الإنترنت حتى وجدت اختلافًا في هذا المصطلح، والذي خرجت به هو أن الرئة تتلف فعلًا، ولكن ليس معنى هذا أن الشخص يموت؛ بل يمكن أن يعيش على التنفس الصناعي طول وقته.

كنا نؤمل ونتعلق بأي قشة، ونخشى الموت، ولا نريد أن نفكر فيه، ونحاول تجاهل هذه الحقيقة وإبعادها عنا...

وكلمت أختي التي تعبت وأخبرتها، لكن قلبها لم يرتح للأمر، وأحسّت أن إخوتي يخادعوننا، ويحاولون تطميننا.

كنا نحن البنات والحفيدات نتناوب عنده للرقية، وكنا نرى منه عجبًا، فمع أنه مريض ولا يتحرك منه شـــيء ووعيه ضعيف، إلا أنه يتأثر بالقرآن ويتغير عند قراءة بعض الآيات، وأحيانًا نخطئ في آية فكان يتألم لذلك الخطأ، فإذا رأيناه يتحرك نظرنا للمصحف فنكتشف فعلًا أننا أخطأنا، فقد حفظ الله له قلبه ووعيه والقرآن الذي حواه فؤاده حتى في أيامه الأخيرة، وكنا نرى عليه أمرًا عجبًا أثناء القراءة، فمع أنه شبه فاقد للوعي إلا أنه يأنس بكتاب الله، ويبدو عليه التأثر الشديد عند بعض الآيات، ويتأثر بآيات الرحمة والعذاب والصبر والصلاة، والآيات التي ذُكر بها المسجد الحرام وكأنه يشتاق له.

وآيات كتم العلم، وكأنه لم يرضَ عن نفسه تمام الرضى، وآيات الجهاد والشهادة في سبيل الله، وقد يردد بشفتيه مع القارئة ما تقرؤه.

تقول إحدى بنات عمي: (إنه يبكي ويتأثر ويهز رأسه ويبقى يئن ويتأمل بعد أن أنهي الصفحة، وأحيانًا أقرأ بداية الآية وألاحظ تأثرًا قويًا، وهي آية تتحدث في شأن فقهي محض، وأستنكر تأثره بها، لكن أنظر لنهاية الآية وأجده مؤثرًا فعلًا كما في آية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ...﴾، ففي آخرها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٢١].

أما أنا فقد أحببت الدخول عليه بعدما كنت أهاب رؤيته بالحال الذي وصفتُ لكم في أول رؤية له بعد اشتداد المرض، فصرت أبدأ بالسلام وأعرّفه بنفسي، وأقول بأني سأقرأ عليك البقرة، وأبدأ في القراءة والحمد لله الذي وفقنا لهذا الفعل، فقد استفدنا منه في تدبر بعض الآيات التي لم نكن نتدبرها، ولم نلاحظ ما بها من عِبر إلا بعد رؤيتنا شدة تأثره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بها.

هذه الفائدة أتت وهو طريح الفراش لا يحرّك غير عينيه ولا ينطق.

ومرة كانت تقرأ عليه ابنة أخي، وعندها أخي عبد الرحمٰن ولما وصلت آية: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، لاحظ أخي اضطراب والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكأنه يريد أن يتكلم فوقف عنده أخي، وقال: نعم يا أبي هذه هي الآية التي تقرؤها أنت دومًا لمن أصيب بمصيبة، وتقول فيها قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، نعمت

العدلان ونِعمت العلاوة؛ والعدلان هما الصلوات والرحمة، والعلاوة هي الهدى، وهو يشبهها بما يوضع على البعير يمينًا ويسارًا، وهذان هما العدلان، وأما العلاوة فهي ما يُوضع فوق ظهره حتى يستقيم توازنه.

كنا أحيانًا نرى التألم في وجهه، فقد كان يحاول أن يسعل لكن حلقه مسدود بأنبوب التنفس، وكان كالمختنق، وأحيانًا ألاحظ بروز عينيه لشدة الاختناق؛ بل إن عينه قد تدمع... وكم كان يتفطر قلبي لتألمه.

وقد كتب أخي عبدالرحمٰن أبياتًا تصف حال أبينا الغالي في مرضه:

يا والدي تتنفس الر ... ئتان منك بكل كُلفَةْ
وأراك تتعب في الشهيق ... ولا أطيق اليوم وصفهْ
وأراك يسألك الطبيب ... فلا يبين الصوت حَرفهْ
وتشير: إني طيب ... فتثير في الدكتور عطفهْ
يا والدي قل للطبيب ... بأن في الرئتين رجفةْ
حجبت دماء القلب حتى ... قد أبان القلب ضعفهْ
نادى الطبيب فريقَه ... فتجمهر الأعوان خلفهْ
لما رأى شارات أر ... قام الجهاز تمر خطفهْ
محمرة فتشاوروا ... وأشاح عن عينيك طرفهْ

وعلــت رطـانـتـهم وفي   قلبي لما يحكــون لهفةْ
وأراك تــرنــو للســماء   وتســأل الرحمــن لطفَهْ
أبشــر وأبشــر يا طبيب   لعل في الأســباب كشفهْ
لا ترتعش يــا قلب بالنـ   ـبضات قد أتعبت جوفهْ
وأثــرت في قلبــي وفي   قلب الطبيب اليوم خوفهْ
عمــر ورامي كلمــا أُجـ   ـهــدت زاد عليك وصفهْ
يحنــو عليــك كوالــد   وأرى من العينيــن ذرفهْ
هــذا الــدواء ونرتجــي   رب البريــة منــه رأفــةْ

و(عمر) و(رامي) هما ممرضان كانا يقومان على حالة الشيخ الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد كتب في ابنته الصغيرة غيداء لما رأى تأثرها لطول فراق جدها الشيخ عندما كان في المستشفى:

رفعــت يديهــا للإله تســبح   تدعو الكريم صغيرتي لا تفصح
دمعت وقالت أين جدي يا أبي   شهران لم أنظر لجدي صرحوا
مشتاقة للشيخ يقرص وجنتي   ويداعب الأطفال مثلي يمزح
مشــتاقة لبشاشــة في وجهه   وبحضنه الدافــي أنام وأمرح
جدي مريض قد سمعت حكاية   لم أدر معناها لمثلي فاشرحوا
وبكت وزادت بالبكاء وأجهشت   قل أين جدي إن دمعي ينضح
غيداء ما هذي الدموع؟ تجلدي   هيــا تعالي للأمور ســأُوضِح

غيداء لم نشعر سنينًا أربعًا ... فنظن أن الصمت بنتي أصلح
غيداء جدك في السرير مخدر ... وإذا أفاق فصوته لا يسمح
قطعوا شرايين الفؤاد ووصلوا ... أجزاءها زعموا بهذا تصلح
هل تعرفين الدم سال رأيته ... من جسمه يدمي الفؤاد ويسرح
هو قد أُصيب بأزمة لكنها ... طالت عسى رب البرية يربح
وخزوه بالإبر الغلاظ وأكثروا ... حقن الدواء لعل هذا يفلح
ركضت بعيدًا سوف أكسر لعبتي ... وأظل أدعو بالشفاء وألحح
سأنام... لا لا... لن أنام سأرتدي ... هذا الرداء وبالصلاة سأسبح
سأقفل التلفاز صمتًا روضتي ... من أين لي باللهو جدي يجرح
جدي مريض أين قلبي والهنا ... جدي مريض كيف قلبي يفرح
رفعت يديها رب تشفي والدي ... وترده لي سالمًا كي أفرحُ

توالت المصائب والبلايا عليه حتى تعطلت الكلى، وامتلأ جسمه بالسوائل، وانتفخ كثيرًا، ثم تعبت المعدة ولم تعد تعمل، وجاءه خير كثير من ربه جعله الله رفعة في درجاته.

كان إخوتي وأبناؤهم وأبناء أعمامي يتناوبون عنده فلا يتركونه ليلًا ولا نهارًا، وكان لهم مكان يستقبلون فيه الزوار، ومن يريد رؤية الشيخ؛ حيث إن الزيارة ممنوعة فيطمئنوهم عليه ويضيفوهم.

❀ ❀ ❀

وفـاتــه

كان رَحِمَهُ اللَّهُ وجعل الجنة مثواه في آخر حياته وقبل مرضه يشير كثيرًا إلى دنو أجله وقرب ساعة الفراق، وقد قالت زوجته: إنه قبل وفاته بسنة قد قال لها: ربما لن أعيش أكثر من هذه السنة.

وقد ذكر عبد الرحمٰن ابن عمي ناصر: أنه ذهب به في رمضان عام ١٤٢٩هـ لأحد المساجد ليلقي محاضرة فيه، ولما خرجوا قال ابن عمي للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: لعلنا لا نأتي لهذا المسجد في العام القادم لقلة الحضور. فالتفت له، وقال: لا أظن أني معكم العام القادم، ما بقي إلا أجلي.

وقد تلقى مرة خبر وفاة أحد العلماء من أقرانه فحزن كثيرًا، وقال: رَحِمَهُ اللَّهُ، ما بقي إلا أنا، أنا آخر الطلاب عند الشـــيخ ابن إبراهيم.

فقيل له: العمر أمامك بإذن الله، فقال: الشـــخص قد يحس باقتراب أجله.

وبعد دخوله المستشفى واشتداد أزمة التنفس عليه، وقبل وضع جهازهم عليه بيوم واحد نادى بعض إخوتي وقال له: هذه منيتي، وأخبره بما يريد من وصية وبعدها لم يستطع الكلام حتى توفي.

في يوم الأحد الموافق ١٤٣٠/٧/١٩هـ ذهبت إحدى أخواتي لرقيته، فلما عادت قالت: إن إخوتي يقولون إن وضعه الصحي غير مطمئن وهو يتدهور.

فحزنت وقلت: لعله يتحسن غدًا، لكن من الغد اتصلت بي في الصباح ابنة عمي تقول: إن إخوتك يقولون: تعالي فالشيخ مريض جدًا. فقلت في نفسي: لا بد أنه انتهى.

فاتصلت بزوجي وقلت: تعال بسرعة؛ فأتاني وقد جهزت حقيبة لأطفالي لا أدري ماذا فيها، ووضعتهم عند أهلهم، وذهبت سريعًا للمستشفى وعظامي ترجف ولا أقدر على البكاء، ولم أكن أقول غير: (إنا لله وإنا إليه راجعون، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وأنا في الطريق اتصلوا بي وقالوا: لا تزال الأجهزة عليه. فحمدت الله حيث إن ظني لم يكن في محله.

ولما وصلت المستشفى دخلت على أبي فوجدته على حالته؛ صدر يرتفع وينزل، عينان شاخصتان ولكن ليس كالعادة، فإخوتي حوله قلقين، ويقولون: إن أرقام الأجهزة مضطربة،

ودقات القلب منخفضة. رأيت أحدهم يرقيه، والآخر يدعو الله، فلم أستطع الوقوف فجلست على الأرض، وأنا أدعو ربي أن ينجيه من هذه الأزمة.

ثم أخرجونا إلى غرفة قريبة، ودخلوا علينا ونحن في حزن عظيم، وقد توجهنا إلى القبلة ندعو الله، فقالوا: نبشركن أن الوضع تحسن الآن، ولعله يستمر على هذا التحسن، فإن استمر فامضين لبيوتكن، ثم خرجوا. فقلت لأختي التي حضرت قبلي: ما المشكلة؟ قالت: لا أعرف لكن اتصل بي إخوتي وهم يبكون كبكاء الثكلى.

وقالت الأخرى: أنا دخلت الغرفة وجميع من هناك من إخوتي يبكون، فأرعبتني دموعهم، وقلت: ما أبكاهم غير خوف الفراق!

مكثنا يسيرًا ثم جاءنا خبرٌ أن الوضع خطر جدًا وأن أحد أعمامي يقرأ على الشيخ سورة يس، فذهبت لأرى أبي الغالي رَحِمَهُ اللَّهُ وإذا إخوتي حوله أحدهم يرقيه ويدعو الله بالشفاء، والآخر يلقنه الشهادة، فحار فؤادي وقلت: كيف هذا؟ هل هو يودع الدنيا أم أن هناك أملًا؟

وكنت أظن أن إخوتي أو الأطباء يعرفون ماذا سينتهي به هذا اليوم.

لكن اكتشفت أنهم مثلنا يؤملون الشفاء، ولكنهم يرون الوداع يقترب.

جلسنا قرابة الساعتين حتى جاءنا الخبر المؤلم: فاضت روح شيخنا ووالدنا وحبيبنا، والتحق بالرفيق الأعلى.

لقد كان هذا الخبر أشد وقعًا من أيّ خبر، فقد كَلَمَ كثيرًا من المسلمين فلسنا نحن فقط من تأثر بفقده.

فوالدنا الذي لأجله يكرمنا ويحبنا الناس، ورفع الله قدرنا ومكاننا به، وإليه نلجأ عند كل أمر ديني أو مشورة دنيوية، قد مضى وتركنا نتخبط ولا ندري كيف سنعيش بدونه.

بعضنا لم يصدق الخبر، ونهى عن الحديث عن وفاته، فتذكرت مصيبة عمر رضي الله عنه في حبيبنا رسول الله ﷺ لما قال: من قال إن محمدًا مات علوته بسيفي هذا.

ذهبت لغرفة والدي لأقف على الأمر بنفسي، وفي الطريق إليها وجدت جمعًا غفيرًا من الرجال الأقارب والأباعد وطلاب الشيخ وأحبابه قد هدهم الأسى، وجلسوا على قارعة الطريق يبكون ويعزّي بعضهم بعضًا، عندها أحسست أن أبي ليس لي وحدي، فالكل مصاب بفقده، وحاول بعض أبنائنا ثنيي عن الدخول لغرفة فقيدنا، فقلت: لا تحاول... أتمنعوننا منه حيًا وميتًا؟ فدخلت عليه، ورأيته وقد توقفت الأجهزة التي كانت مربوطة بجسده، وأطفئت أنوارها التي كانت كثيرًا ما تقلقنا، وسحبت منه الأنابيب التي كانت تدخل جسده، وبقي صامدًا كما عهدته، وكأنه

قد ارتاح من دنيانا وهمومها، فأهويت عليه أريد تقبيله فنهاني أخي، لأنه اعتاد على ذلك طوال الأشهر الماضية فقلت له: مِمَّ الخوف الآن؟ كنتم تقولون نخاف عليه من العدوى، والآن مضى إلى ربه، أرجوك دعني فهي قبلة الفراق، فخنقته العبرة وتركني، فقبّلت يده قبلة طويلة، وكانت يده باردة منتفخة من التورم، وتمنيت لو استطعت أن أضم جسده كله بين يدي.

ذهبنا إلى بيت والدنا نجرجر أحزاننا، وتلتهب قلوبنا كمدًا وهمًا... ففي أي مصيبة نحن اليوم؟!

ومكثنا فيه نتجرع الغصص، وقد أتى إلينا من أخواتنا من تصبرنا، وتسعى لتخفيف مصابنا، وحين جاء صباح يوم الثلاثاء ذهبنا لمغسلة الأموات، وانتظرنا حتى انتهوا من غسله، ثم فتحوا لنا المجال لتقبيله وتوديعه.

فحين رأيت وجهه رأيت وجهًا مشرقًا خاليًا من الألم، وكأنه قد استراح من همّ الدنيا ومحنها، ورأيته وقد حفّته اللحية البيضاء الناصعة، فأهويت عليه وضممت رأسه وقبلته قبلة تمنيت لو طالت دهورًا، ولكن حال بيننا لزوم الفراق، وأنه سُنة من سنن الله في الكون، فتركته وأنا أبكي وعمي فوق رأسي يصبّرني وينهاني عن البكاء، بالله يا عمي، إن لم أبكِ على والدي وشيخي وعزّي وجاهي فلمن أدخر الدمع؟!

حين رأيته ملفوفًا بالبياض والكافور يفوح من جسده الطيب، أيقنت أن الوداع قد حلّ، وأن أبي الحبيب قد تركنا إلى غير رجعة.

رأيت رأسه بين يدي، وقلت في نفسي: يا لخسارة العالم بذهاب هذا الرأس المليء علمًا وحكمة وفنونًا شتى.

وبالجهلنا لتفريطنا في هذا الكنز الذي كان بين أيدينا.

وبالحزننا لما تركناه، وكنا نظن أنه سيدوم لنا ولم نفطن ليوم الوداع.

ترى... كم سيخلف ذهابك من زعزعة للقلوب وتقطيع للمهج؟ وكم من الملايين سيبكي هذا الجسد الذي أمامي؟!

أنت أبي، وأنا بضعة منك، ولكني لست إياك ولست مثلك.

رحمك الله يا والدي، ورحمك الله يا والدتي، فقد كنتما بابان مفتوحان لي إلى الجنة، وهنيئًا لمن لا يزال والداه على قيد الحياة، لينعم ببرهما، وينال أجرهما.

اللهم أسعد أبوي واجعلهما متلذذين منعمين هانئين، وأبدلهما دارًا خيرًا من دارهما، وأخلف علينا خيرًا، واجمعنا بهما في الفردوس الأعلى جمعًا لا فراق بعده.

ذهبنا للصلاة عليه مبكرًا، حتى لا يواجهنا الزحام، وانتظرنا حتى صلوا عليه، ولقد رأى الجميع الجنازة وقد صلى عليها

الألوف، ورأينا الجنازة الأخرى لامرأة صالحة اعتزلت الناس، وعكفت على العبادة منذ عشرين سنة، وكان عمرها قد جاوز التسعين، فجزاها الله في وفاتها بهذا العدد الكبير من المصلين الذين أدوا عليها الصلاة تبعًا لا قصدًا.

ازدحم الناس كثيرًا على الجنازة؛ كلٌّ يريد تقبيلها، وكلٌّ يريد حملها، حتى ابتعد عنها إخوتي وأعمامي وكادت تذهب نفوسهم.

وإن نسيت فلن أنسى مشاهد الجموع التي تزاحمت، فيهم الأعمى والأعرج، وفيهم الملتحي والحليق، وفيهم الشيخ والشاب، وقد صورت الكاميرات صورة لشاب اضطر في الزحام للصعود فوق سيارة ورفع عكازيه معه.

جلسنا نحن النساء في المصلى حتى انتهوا من الدفن، واجتمعت النساء حولنا يعزيننا، وبعضهن تبكي، فيهيجننا على البكاء، نسأل الله الثبات والهداية.

ذهبنا للبيت بعد انتهاء الزحام، وإذا بدوريات المرور عند الباب استعدادًا لما سيأتي من زحام، ومنذ ذلك اليوم حتى أربعة أيام أو خمسة بعده ونحن نستقبل المعزين من التاسعة صباحًا حتى الثانية عشرة ليلًا، فهناك الباكية، وهناك الصابرة، وهناك النائحة، وهناك العليلة التي لم تقدر على مجيئنا إلا بعد خمسة أيام من المرض الذي هدها.

وكثيرًا ما تدخل امرأة تسلم علينا وهي تقول: والله لا أعرف منكن أحدًا لكنه حب الشيخ الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

أتانا القاصي والداني، أتانا من ظننا ألا نلتقي به أبد الدهر، جيران انتقلوا وانتقلنا عنهم، أصهار سابقون، أصدقاء مدارس، زملاء قدماء، وأتانا الفقراء يشكون ضعفهم، والأمراء يبكون فقيدهم، والأقرباء ينعون سيدهم.

أتانا من انتزعت قلوبنا لما رأيناه حزنًا، فتلك المرأة الإفريقية التي كانت تتردد على والدي حتى يسدد ديونها، ثم كفلها ثم أتى بأختها، لتحج ثم تعمل هنا، ثم تزوجت وأنجبت، دخلت علينا ثم لم تقوَ رجلاها على حملها، فجلست في مكانها تنتحب حينًا، وتتأمل وجوهنا الحزينة.

جاءتنا الكثيرات ينحن ويقلن: مرضنا وأخذنا إبرًا مسكنة مهدئة ولم نذق الطعام.

أما نحن فقد أنزل الله علينا سكينة وعزاء، فلم تأخذ إحدانا علاجًا سوى الحبوب المسكّنة المعتادة، ولم ننح، ولم نأت بما يسخط ربنا والحمد لله.

إن شيخنا ووالدنا رَحِمَهُ اللَّهُ قد أدى ما عليه، ولكن ماذا سنقدم نحن لديننا؟!

وقد زارتنا نساء مقعدات، وبعضهن كفيفة البصر، والثانية صماء وبكماء، والثالثة تمشي بعكاز، ولم تمنعهن هذه الموانع من المجيء.

وأتتنا إحدى القريبات وكانت مريضة بداء قديم فيها، وقد تأثر عقلها ونطقها بمرضهـــا، إلا أن في دينها صلابة كانت تبكي بكاء الثكلى، فسالت دموعنا رأفةً بها وعجبًا من حبها لأهل الخير مع ما بها من بلاء.

بعد وفاته وذهاب الناس وتفرق الأحبة صار بيت والدي موحشًا خاليًا، إذا مررت من عنده أتذكر الحبيب فأغص بعَبْرتي، وإذا دخلته وجدت الغبار يكسو أرضه وجداره؟ ووجدت آثار الحبيب: سيارته تشـــكو فراقه، وثيابه لا تـــزال معلقة، ومكتبته تئن مـــن الهجران، وحذاؤه قد يبس من الشمس والغبار.

أهذه الدار العامرة بالناس، والتي لم تخبُ أنوارها منذ بنائها صارت هكذا؟ تبًا للدنيا ما أهونها وما أتعس من تعلق بها.

ثم تذكرت حالنا نحن البنات ســـابقًا، كيف كنا منشـــغلات ببيوتنا عن والدنا، ولم نفطـــن ليوم الفراق مع أنه لم يكن بحاجة لنا، إلا أننا بحاجة له، كنا لا نزوره إلا مرة أو مرتين في الأسبوع، فقلت: يا لجهلنا وتفريطنا، كان والدنا كنـــزًا أضعناه، ليتني كنت خادمة عنده، أو كبعض طلابه الملازمين لـــه، أو كبعض إخوتي الذين لا يتركونه بحال.

فكانت هذه الوصية لكل من عنده والدان وقد كتبتها على عجل وهي لا ترتقي للشعر فليعذرني العاذلون:

يــا مــن لــه أم وأب اســعدهما فهمــا النخب
قبّــل مواضــع خطوهــم شــاورهما في كل صعب
والثــم يديهــم دائمًــا واضممهما ضمًّــا لقلب
واعطــف علــى آلامهم واحرسهما في كل خطب
إن الــحــيــاة غــريــبــة والموت حولــك يقترب
وإذا مضــوا تركــوك قلـ ـبًا خاويًــا يلقى النصب
ســتظل بعد رحيل حبك خــاليًــا مــن كــل حب
وكأن قلبــك فــي العرا إذ ينهش الشــريان ذئب
وتظــل تقطعــك الندامة ليت عمــري قــد ذهب
وبــقــوا لــنــا آبــاؤنــا يســقون ظامئنا كسحب
إن الندامــة فــي فــؤادي كــــل حــيــن تلتهــب
قد كنــت أتــرك والدي خمسًــا من الأيــام صبّ
مــن دون أن آتــي أراه وتكتحل بالوصل هُدب
ليت الــذي بيني وبينك ســور وهــن مــن خشب
حتــى لعل الأذن تســمع صوتكــم بالذكــر رطب
ويشم أنفي أطيب الأطيا ب فــي لبــس وثــوب
وإذا أردت أزوركـــــم أسعى لكم من دون حجب
من عاش فــي هذي الدُنا سيفارق الأحباب غصب
يــا رب فاجمعنــا بهــم في جنــة والنهــر عذب

❀ ❀ ❀

بعد الرحيل

أنكرنا حالنا بعد رحيل والدنا، فتغير الناس وتغيرت الأرض، وتبدلت الأحوال، فصار الشارع المزدحم خاليًا... والبيت المملوء فارغًا... وعانينا مرارة اليتم، وكأننا أطفال صغار.

ووالله إنـــي لم أقدر علـــى التصديق... فإذا أشـــكل عليَّ أمر لازلت أقول لنفسي: سأسأل والدي إذا التقيته، ولكن أين والدي؟ لقد وضع تحت الثرى رَحِمَهُ اللَّهُ وأبدل ثراه بفسيح الجنان.

وقد ذكر بعض إخوتـــي أن بعض مـــن كان يعزُّهم ويقدرهم لأجل والدهم ولأجل الدنيا بدأ يصد ويتغافل عنهم حيث فُقدت المصلحة!!

حاول إخوتي ســـدّ مكان الوالد وملء الفراغ الذي خلّفه، ولكن هيهات.

ففي الرحلة الســـنوية لمكة في رمضان اصطحبوا من كان يصحبهم والدي رَحِمَهُ اللَّهُ من عمات وأخوات، وفي الحج لم يفتح

أحد يديه لاستقبال عائلة الشيخ كالعادة إلا أحد الأقارب جزاه الله خيرًا وهو اللـواء محمد بن عبدالرحمٰن السـعدان، وهو ابن أخت الشيخ.

وحاول إخوتي فتـح باب البيت كل يـوم للناس ليقضوا حوائجهم... إلا أن الناس كانوا يريدون الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ... والشيخ فقط.

وكتب أخي عبدالرحمٰن أبياتًا يرثي بها والدي رَحِمَهُ اللَّهُ ويصف حاله بعد فقده، ومنها:

الجسم أصبح متعبًا بل منكرًا ... ما حوله قـد أنكـر الأكوانا
عيني أسيحي الدمع أروي وجنتي ... فالخـد صـار لفقـده ظمآنا
الناس ماجوا جلهم بل كلهم ... نكروا الخطاب وكذبوا الآذانا
الشمس من بعد المصيبة أصبحت ... أضواؤهـا لا تحسـن الألوانا
والبدر كل الناس أنكر شكله ... حتى النجـوم تحولت غربانًا
أبتاه مـا لي والخليقـة إنهم ... فقـدوك علمًا للهدى شـطآنًا
فقدوك سيفًا مصلتًا ضد العدا ... لا ترهـب الأعـداء والأقرانا
فقدوك يا نعم الشفيع لكل من ... طلب الشـفاعة لم تكن منانًا
فقدوا التواضع والسماحة والتقى ... والحلم والإخلاص والإحسانا
فقـدوك لكني فقدتـك والدًا ... قلبـي لفقدك قد غـدا حيرانًا
لم أسـتطع تصديق ما عاينته ... للآن حتـى الآن حتـى الآنا

وإذا ذكرتــك أتعبتنــي عبرة ... تحوي الأنين وتنفث الأحزانا
أبتاه عيني لم يطب لي غمضها ... أقضي الليالي يا أبي ســهرانا
أأنا حضرتك حينما أسلمتها نـ ... ـفسًــا لربــك أتلــو القرآنــا
أأنا غسلتك كيف طاعتني يدي ... ولففت حولك بعدها الأكفانا
أأنا لففتــك للجبيــن مودعًا ... قبل الفراق وكان وجهك زانا
أأنا وقفت مع المصلين الأُلى ... صلوا عليك وساءلوا الرحمانا
أأنا حملتك كي تُوارى في الثرى ... ولحدت جسمك لم أكن سكرانًا
أأنا حثوت مــن التراب بقبضتي ... في القبر وقت الدفن هذا كانا؟
أأنا وقفت مع الأُلى وقفوا على ... قبر الحبيب وودعوا الجثمانا؟
ســألوا الإلــه ثباته فــي قبره ... وبكوا على قبر الحبيب زمانا
هــذا من الأحــلام كنت أظنه ... هذا مــن الأحلام صــار عيانًا
أبتاه نفســي أنكرتها أضلعي ... والقلب بعــد فراقكم قد بانا
إني أرى قلبــي تغير بعدكم ... وتعــوّد الوســواس والخفقانا
يهذي لساني دون قصد باسمكم ... ويخاطب الأبواب والجدرانا
أتفقد الجسد الكريم فلا أجد ... أثرًا لــه فأحقــق الخســرانا
هذي الأرائك كان فيها نورها ... وحبورهــا فتحولــت عيدانا
هذا مكان الشيخ أصبح فارغًا ... ولقــد عهــدت مكانــه ملآنا
ملأ المــكان بعلمــه وبحلمه ... وبجلســة تتفقــد الإخوانــا
وببســمة تنســي الصغار بأنه ... علَم الجزيــرة زادهــا عنوانا

وبحكمة جـاء الوفود لأجلها ... هجروا البلاد وغادروا الأوطانا
وجثوا أمام الشـيخ نهلًا علمه ... وجدوه للعلـم الحقيقي صانا
وجدوا الحديث وفقهه وعلومه ... والنحـو والتفسـير والقرآنـا
وعلومـه وأصول تفسـير له ... وأصول فقـه للجميـع أبانا
وعقيدة التوحيد أوضح نهجها ... قطع الشـكوك وسدد الحيرانا
بسط العلوم بسَـمْتِه وبلفظه ... وأبـان وجه الحـق حتى بانا
أبتاه في هذا المصلى خاشعًا ... دومًـا أراك أراه أيضًـا عانى
فقد الصلاة ركوعها وسجودها ... والذكـر والتسـبيح والقرآنا
هـذا المصلى حـنّ إن حنينه ... قطع الفؤاد وأحـرق الوجدانا
أبتاه من هذي الطريق سلكتها ... نحو المساجد فاستمع ما كانا
هـذي الطريق رأيتهـا مغبرة ... واستنكرت بعد الحبيب خطانا
سـألت جميع العابرين فقدته ... نـورًا يمر عليّ كيـف جفانا
سبقت دموعي كلمتي فتلعثمت ... حتى الطريـق لفقدكم أبكانا
أبتـاه لمـا أن رأت سـيارة ... بيضاء عيني خلتكـم ركبانا
فقصدتها من دون وعي راكضًا ... مستبشـرًا وضممتهـا فرحانًا
لما أفقت ولم أجدكم بادرت ... عيني الدموع وأطلقت ودیانًا
أبتاه قد جـاء الفقيـر مؤملًا ... وجد المكان ولم يجد من كانا
سأل الجليس بقربه أين الذي ... يعطونه الأوراق والأشـجانا؟
إني أتيت إليه قبـلُ فلم أعد ... إلا بخيـر أفـرح الولدانـا

سالت دموع جليسه لم لَم يطق ... بعد الجلوس فـودع الإخوانا
ومضى يجر الصوت من لي بعدكم ... أمضي إليـه أرى الزمان قلانا
هذي العجـوز رأيتها كم مرة ... كانت ترقـب وقتـه إذ جانا
فيصيخ سمعًا نحوها إذ صوتت ... ويريشـها فتقول صرت أبانا
هذي العجوز أتت فلم تدخل لنا ... وقفت هنـاك ونادت الجدرانا
إني سأبكي الشيخ بعد مماته ... حتـى أمـوت بخيـره غطانا
ستر البنات فزوّجت إحداهما ... وتوظفت أخـرى فذي ترعانا
قل يا جدار لكل من شاهدته ... فقـد الحبيب أصابنـا ودهانا
أبتـاه هـذا هاتـف خلفتـه ... قـد كان قبل رحيلكـم رنانا
فقد الرنيـن بفقدكم قد كنتم ... عـزًّا لـه والآن نـام فهانـا
كانـت فتاواكم تسـافر عبره ... عبـر المحيط لتنقـذ الحيرانا
كم مسلم ضاقت عليه مسالك ... فغدا بعيـد جوابكم جذلانا!
كم منكـر أنكرتـه ذا هاتف ... شهد الشجاعة فانتشى نشوانا!
قد قال هاتفكـم كلامًا محزنًا ... صمتي يطـول فأين من عزانا
يا هاتف الشيخ الجليل عزاؤنا ... أن الجمـاد ينافس الإنسـانا

إلى آخر ما قال.

وقد كتب أحد أعمامي وهو ناصر بن عبدالرحمٰن حفظه الله منظومة يسجل فيها الوقائع ويقول فيها:

أيا عام ألف بعـد أربع مائة ... تلتها ثلاثينا من العام أسـرع
وذلك بـدءًا من مهاجر أحمد ... رسـول الهدى للناس في الحشر يشفع
وفي يوم عشرين ومن شهر سبعة ... يوافق اثنين بـه الحزن يطبع
تلقيت إشـعارًا بنص رسـالة ... من الهاتف الجوال للقلب تقرع
تلقيتها من صادق الود والوفا ... سليمان ابن الشيخ شهم سميدع
ويشعرني فيها بحال انتكاسة ... بدت في هزيع الليل للشيخ تصرع
وما إن قرأت النص حتى تثاقلت ... عن المشي رجلاي وكنت المروّع
توجهت للمشفى سريعًا أزوره ... وعيني تسح الدمع والقلب يهلع
فما إن رأيت الشيخ قد زاد سقمه ... مسجى على بطن السرير مجوع
فلم أمتلك نفسي فأجهشت بالبكا ... لأني خشيت الموت للشيخ يهجع

إلى أن قال:

كذلك إخواني وقد زاد همهم ... يصيحون من حولي بحزن ملوّعُ
كذاك بنات الشيخ بالحزن قد ... بدا لهن أنيـن فالعيون تدمعُ
وأبناء إخواني ذكورًا ونسـوةً ... وأحفادهم فالكل بالحزن يصدعُ
جميعهم يبكـون حزنًا ولوعة ... على فقد من قد كان لله يخشع
رجعت إلى نفسي وقلبي موجعٌ ... أكفكف أحزاني وللدمع أدفعُ
أحاول بالصبر الجميل تحملًا ... وأبعد أحزاني وللذهن أجمعُ
وأسأل إخواني وأبناءهم ترى ... أحقًّا بأن الشيخ في القبر يودعُ؟

فوالله إنـــي لم أطق مـــا رأيته ... فقد كنت حقًّا للأسى أتجرعُ
فقالوا: نعم الموت لا شك واقع ... على الناس من عاص ومن كان يركع
فما إن عرفت الأمـــر قد كان ... واقعًا فكاد فؤادي بالمصيبة يهلعُ
فيا لهف قلبي بعد فقدك يا أخي ... فمن لي ترى من بعد فقدك يسمعُ
لقد كنتَ تسقيني كأمي ووالدي ... رحيمًا عطوف القلب للخير تصنعُ

إلى آخرها وهي طويلة جدًّا.

❀ ❀ ❀

الخاتمة

هذا ما تيسر لي جمعه، وما جادت به الذاكرة من المواقف والأحداث في بيت أبي وشيخي الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن بن جبرين، أسأل الله تعالى أن يرحمه رحمة واسعة، ويجعله مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا.

وعذرًا ـ أيها القارئ ـ إن كنت قد أثرت أشجانك، وهيّجت أحزانك، لكنها بعض مشاعري، ونُتَف من سيرة والدي، أردت تقييدها، مدركةً أن هذه حال الدنيا، فما ثَم اجتماع إلا ويعقبه افتراق، ولا عافية إلا يعقبها السقم، عافانا الله وإياكم، ورزقنا الرضا بالقضاء.

وقد بدأت بكتابتها في أول عام ١٤٣٠هـ، ومع الأيام كنت أزيد فيها، وأنقّحها، وأستشير فيها، وأحذف منها حتى يسر الله تمامها، وقد كنت في كل مرة أراجعها لا أشعر إلا ودموعي تهطل على لوحة المفاتيح رغمًا عني، مع إنني قرأتها مرارًا، لكن الحبيب

لا يُنْسَى بسهولة... مع أني أعرف أنه لن يستفيد من دموعنا، لكنها لا تستشيرنا.

وما حالي إلا كما قال أبو الحسن التهامي:

جُبلت على كدر وأنت تريدها ... صفـوًا من الأقـدار والأكدار
ومكلّـف الأيام ضـد طباعها ... متطلبٌ في المـاء جذوة نار
فالعيـش نـوم، والمنية يقظة ... والمـرء بينهمـا خيال سـار
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شـفير هار
فاقضوا مآربكـم عجالى إنما ... أعماركم سـفرًا من الأسـفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ... أن تُسـترد فإنهـن عـوار
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت ... مـنـقـادة بـأزمـة الأقـدار
جاورتُ أعدائـي وجاورَ ربَّه ... شـتان بين جـواره وجـوارِ

وأختم بتقديم جزيل الشكر لكل من ساهم معي في إعداد هذه الورقات من إخوة وأخوات وأحباب؛ فلهم مني خالص الدعوات بالتوفيق في الدارين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلفة

@hayajebreen

ملحق الصور

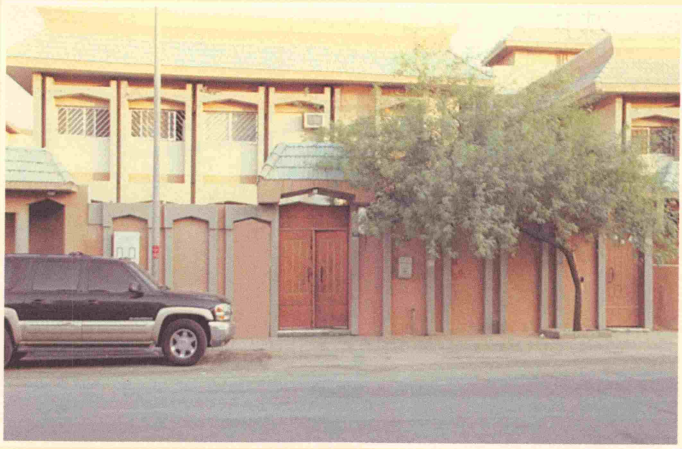

منزل الشيخ الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ والذي سكنه منذ عام ١٤٠٢هـ

المنزل من الداخل

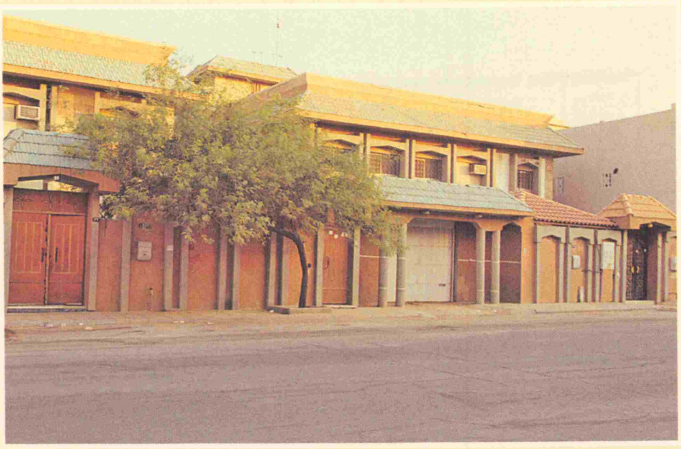

المنزل الأيمن والذي صار مكتبًا تدار فيه أعمال الشيخ

المكتب من الداخل

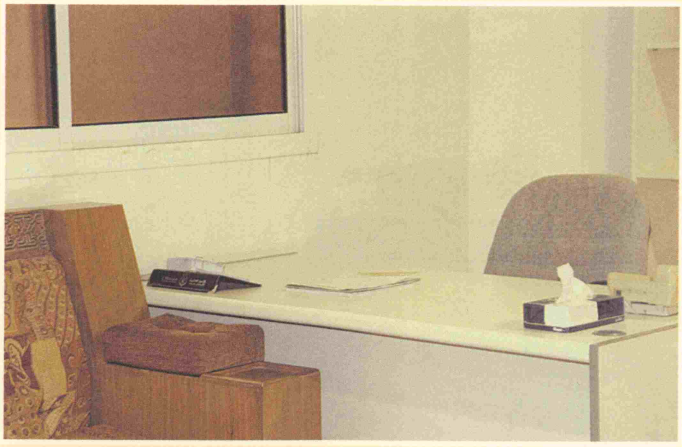

مكان استقباله للعامة واتصالاتهم

مجلس الضيوف الخاصين : تم إنشاؤه حديثًا

صالة طعام الضيوف، ويلاحظ تواضعها

سيارته الأخيرة

مكان جلوسه في الصيف قبل عدة سنوات

مكان جلوسه في داخل بيته آخر الأمر

بوابة المكتب الخارجية والتي يتكدس عندها الناس عصر كل يوم

لوحة بخط عمي ناصر حفظه الله يتم تعليقها عند غياب الشيخ

مكتبة صغيرة، بنايتها بسيطة، اقتطعها من الشرفة

البشت (المشلح) الذي يرتديه الشيخ ويعلقه دومًا قريبًا منه

جانب من سكن الطلاب في المقر الذي أنشئ حديثًا

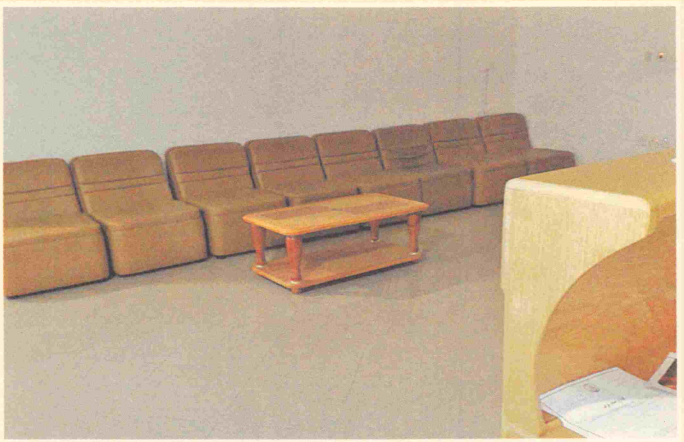

استقبال الطلاب